الباب الثالث

الفصل الأول

الإذاعات السرية

تمخضت الحرب العالمية الثانية عن صراخ أيديولوجى بين المعسكرين الشرقى والغربى ، كان من نتيجته شبوب حرب نفسية أدت بالعالم إلى حافة الهاوية فى مناسبات كثيرة ، ولقد أدت الإذاعة فى هذه الحرب النفسية دورها كاملا ، والآن أشير إلى خطورة مايطلق عليه اسم الراديو الأسود أو الدعاية السوداء . وهو تعبير يشير إلى الإذاعات السرية المنتشرة فى أرجاء العالم ، فقد استخدمها القطبان الكبيران استخداماً سيئاً لتحريض الشعوب على الثورة والإذاعات السرية أو الراديو الاسود ليس بالشىء الجديد ، فقد استخدمه الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية بعد قيام قواتهم باحتلال بلاد بها محطات إرسال ، ثم تحويل عدد من هذه المحطات إلى إذاعات سرية لإيهام العدو بأنها لاتزال إلى جانبه فيقع فى الكمين الذى ينصبه له خصمه ، كذلك استخدمه النازيون بنفس الطريقة . . وفى الوقت الحاضر نستطيع أن نطلق كلمة دعاية سوداء على الدعاية التى تنبعث من مصدر مجهول ، أى غير مصدرها الحقيقى ، بعكس الدعاية البيضاء التى تصدر من مصدر معروف بأن يكون وكالة أو هيئة أوقيادة عسكرية ، والدعاية الرمادية هى التى لاتعلن عن مكان صدورها وإن يكن معروفا مصدرها للجميع ، ويرى البعض إطلاق الدعاية السوداء بصفة عامة على محطات الإذاعة التى لاتعتبر صوتاً رسمياً للحكومات الشرعية صاحبة السلطة فى البلاد على أن تقوم هذه المحطات فى نفس الوقت بدعاية هدامة ، وذلك بأنه توجه كلامها إلى منطقة خاصة أوجماعة معينة لأسباب تكتيكية مناهضة لعملية نشر أيديولوجية من الأيديولوجيات أو معارضة لحقيقة إيجابية يدين بها الشعب بأسره ولايدخل فى هذا التعريف مايعرف بالمحطات القراصنة التى تنتمى لأحزاب

أو أيديولوجيات معارضة لنظام الحكم فى البلاد، فمثلا كان هناك فى وقت من الأوقات جماعة منافسة تتكون من بعض رعايا الاتحاد السوفيتى وفى داخله قامت ببناء محطات إرسال ضعيفة من نوع محطات الهواة، أخذت تذيع الأغانى الخليعة والماثعة والنظريات السياسية المناهضة للشيوعية، وإذا أخذنا بهذا التعريف الأخير تعتبر المحطات التى تتحدث باسم الحركات الوطنية الثورية محطات سرية لأنها لاتتحدث باسم السلطة الشرعية فى البلاد، وقد تكون سلطة المستعمر. ومهما يكن من أمر فنحن سوف نتعرض فى هذا الفصل للمحطات الثورية لاباعتبارها محطات سرية ولكن لنستعرض الطرق المختلفة التى تتبعها فى دعايتها كما نستعرض المحطات السرية بأنواعها الثلاثة : السوداء والرمادية والبيضاء . . هنا إذاعة فلسطين من دمشق نوجه إذاعتنا إلى اللاجئين العرب أبناء الثورة إلى هؤلاء الذين سوف يسيرون غدًا فى سهول الخليل وفوق تلال النقب ، إلى هؤلاء الذين يرفعون العلم العربى فوق يافا وجبل كارمل إلى جميع هؤلاء . . هنا صوت فلسطين من دمشق » . .

نسمع هذه العبارات أو مثيلاتها فى افتتاح الإذاعة الفلسطينية باللغة العربية على موجاتها المتوسطة والقصيرة التى تقدمها لها طواعية الإذاعات المضيفة فى مصر، ودمشق ، والجزائر ، وبغداد ، وطرابلس ، وبيروت ، وكانت أم درمان تستضيف هذه الإذاعة الشقيقة حتى مارس سنة ١٩٧٣ عندما هاجمت فئة من الفلسطينيين السفارة السعودية فى الخرطوم.

وهذه الإذاعة لاتعتبر سرية ولاتعتبر إذاعة قرصنة ، ولكنها إذاعة علنية حقيقية ، والشرق الأوسط معروف بإذاعاته المتعددة من إذاعات بيضاء إلى إذاعات داكنة السواد ، أى من الإذاعات العلنية التى لايمسها الشك من قريب أو بعيد إلى الإذاعات الملتوية التى تفضل الشكل السرى.

وجل إذاعات الدول العربية بيضاء ، إذ هى تعلن عن مصدرها ومكانها وعن سياستها وأهدافها ، فى حين توجد بعض إذاعات رمادية بعض الشىء ستتعرض لها فيما بعد . أما الإذاعات السوداء فقد أصبحت فى يومنا قليلة ونادرة كلما ابتعدنا ، سواء من ناحية الزمان أو المكان عن المواقف الحربية الساخنة.

ومن سمات الإذاعات السرية أنها تحاول إخفاء مصدرها لسبب أو آخر للتمويه عن مكانها ، وكانت هناك محطة بالفعل تتحدث باسم « نغمة التحرير تخفى مكانها وتعمل على موجة متوسطة من درعة قرب مرتفعات الجولان ، وحدث أن أصابتها القنابل فتوقفت عن

الإرسال ، ومن ثم اكتشف مكانها ، وقرر السوريون عدم السماح لهذه المحطة بالعمل فانتقلت إلى العراق ، ولكنها عادت مرة أخرى إلى سوريا وهذه المحطة بالذات تتضارب حولها الأقوال ولاتستطيع أجهزة التصنت أن تحدد مكانها ولامكان أية محطة سرية أخرى بالدقة إلا باتباع وسائل أخرى مثل التعرف على لون السياسة المذاعة وأصوات المذيعين ولهجتهم ، وهما عنصران يحددان على سبيل التخمين مكان صدورها . . والواقع أن الإذاعات السرية لاتمثل إلا نسبة صغيرة جداً من الإذاعات التى تملأ الأجواء الأثيرية فى الشرق الأوسط ، خاصة فى الأوقات العادية إذ تجد الحكومات فى حالة توتر العلاقات الدبلوماسية أو انقطاعها أن لاداعى لاستخدام محطات سرية فى حملاتها ضد شقيقاتها أو ضد أعدائها ، ففى الإذاعات العلنية مايغنى عن الإذاعات السرية ، ولقد مرت فسحة من الزمن اشتغلت فيها محطات الشرق الأوسط بمهاجمة بعضها بعضًا ، أو بمهاجمة أعدائها ، ولايزال بعضها يقوم بذلك حتى اليوم ، فنحن نرى إذاعة القذافى من طرابلس تحاول مثلا شن حملاتها المرة على مصر والمغرب فى حين تحاول الرباط الرد على تهجماتها ، أما مصر فتحاول إهمالها كذلك حاولت العراق تسديد حملات عنيفة ضد إيران والعكس صحيح ، زد على ذلك صوت اليمن الجنوبى الحر فى جنوب الجزيرة العربية وراديو سوروش Sorush المبشر بالماركسية من بغداد ، كانت أول إذاعة سرية معادية للشعب المصرى فى عام ١٩٥٥ بعد ثورته بثلاث سنوات ، وكانت تحمل اسم صوت مصر الحرة ، وكانت آخر محطة سرية هى التى كانت تعمل لحساب الإمام أحمد البدر ، وتوجه إذاعتها ضد اليمن ومصر ، وقد تزايد عدد المحطات تدريجيًا حتى بلغ فى عام ١٩٥٨ إحدى عشرة إذاعة سرية ، وكان بعضها فى البلاد العربية مثل صوت الحق ، وهى نفس المحطة التى كان يلعب بها ملك العراق ويوجهها ضد الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، وكانت أجهزتها قد نقلت إلى بيت نورى السعيد ، ودأبت على التمهيد لعدوان السويس فى شتاء ١٩٥٦ كذلك أنشأ شمعون فى لبنان إذاعة صوت لبنان ، وكانت توجه دعايتها ضد مصر ، وأتى بعد ذلك عبد الكريم قاسم فأقام صوت دمشق الحرة ووجهها فى عام ١٩٥٩ ضد الوحدة . وشاركت الأردن بعد ثورة ١٤ يوليو فى العراق فى إنشاء محطة سرية مع الإنجليز وجهتها ضد العراق . ويبدو أن الملك حسين كان يفخر بوجود هذه المحطة فأعلن عنها فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٨ فى حديث له مع جريدة الصنداى تايمز البريطانية ، وفى أكتوبر سنة ١٩٦٣ أقام حزب البعث العراق إذاعة سرية باسم صوت الجماهير . وبعد فشل محاولات الوحدة

السياسية مع مصر وسوريا ركزت هجومها على القاهرة ودمشق .

وشاركت فرنسا فى هذه الإذاعات فأقامت صوت القاهرة الحرة ، وبعده صوت الأحرار للرد على حملة التحرير التى قام بها صوت العرب ضد فرنسا تأييداً للجزائر ، وحاول جاك سوستيل فى الجزائر إقامة محطة طبق الأصل من صوت العرب بمذيعيه لتحطيم ثقة المجاهدين فى صوت العرب ، ولكنها فشلت فشلا ذريعاً ، ولم تحقق أهدافها وساهمت بريطانيا أيضًا ابتداء من ٣٠ أكتوبر عام ١٩٥٦ فى الإذاعات السرية ضد مصر ، إذ تحولت محطة الشرق الأدنى إلى إذاعة سرية باسم صوت بريطانيا ، وقد توقفت بعد نهاية العدوان ، ومن الأمور المشجعة أن الشعب المصرى لم يكن يأبه لهذه المحطات السرية ، ويبدو أن كثرتها قد خلقت فيه مناعة ضد الدعاية السوداء ، ونشير هنا إلى إذاعة مصر الحرة الفرنسية التى ظهرت بعد تأميم قناة السويس وكان خطؤها أن هاجمت رئيس جمهورية مصر جمال عبد الناصر شخصيًّا ، الأمر الذى انعكس إلى تأييده ومناصرته بكل قوة ، وحاولت هذه المحطة بالذات أن تنال من الوحدة بين مصر وسوريا ولكنها فشلت لأسباب عدة ، منها استخدام الكلمات البذيئة والوقائع الكاذبة مما نفّر المستمعين ، وأخيرًا توقفت فى آخر يوليو عام ١٩٥٩ لتعود مرة أخرى بعد أربعة أشهر إلى الظهور تحت اسم صوت الأحرار وسلكت نفس السياسة الهجمية ضد شخص جمال عبد الناصر مع استعمال نفس الألفاظ النابية وحاولت فرنسا أيضًا أن تثير الشعب السورى على الوحدة فأنشأت محطة صوت الإصلاح للايقاع بين الشعبين المصرى والسورى ، كذلك ظهرت إذاعة صوت العراق التى عملت من الأردن بعد ثورة العراق .. وأخذت تهاجم مصر باعتبارها المسئولة عن هذه الثورة ، وتتهم جمال عبد الناصر بأنه شيوعى ويعمل على جر الدول العربية معه فى ركاب الشيوعية ، وكانت هذه المحطة صورة طبق الأصل من إذاعة لندن من ناحية مهاجمتها المشاريع المصرية وتحريض أهل فلسطين ضد مصر ، والايقاع بينها وبين الدول العربية وجامعة الدول العربية ، ثم فى نفس الوقت تحاول هدم هذه الجامعة ، وفى سبتمبر عام ١٩٦٢ ظهرت محطة أسمت نفسها إذاعة الأحرار وتدعو إلى الالتفاف حول الأمير الحسن ، وكان لها اتصال بالقوات البريطانية فى عدن ، وبالقوات الأمريكية فى الظهران .. ولكن عمرها كان قصيرًا فاختفت كما ظهرت دون أن تترك أثرًا ، ولعل إذاعة كليبر التى أشرف عليها جاك سوستيل ، والتى عرفت فيما بعد باسم حركة النهضة الجزائرية ، أهم محطة حاولت أن تلبس ثوب صوت العرب بشعاراته وأصواته وألحانه المميزة حتى بإضافة بعض الشوشرة حتى

يظن المستمع أنها آتية من مكان بعيد كالقاهرة .

والخلاصة أن جميع هذه المحطات كانت تعمل لحساب المخططات الاستعمارية وكانت تحاول تحقيق نفس الأهداف القديمة التى وضعتها إنجلترا وفرنسا وهى :

١ – عزل الرئيس عبد الناصر بعد تقويض حكمه من الداخل .

٢ – الادعاء بتغلغل شيوعى فى مصر وسوريا ، ووجود نفوذ عسكرى سوفيتى فى مصر.

٣ – تجميع الدول العربية والإسلامية حول حلف بغداد .

٤ المناداة بتسوية النزاع العربى الإسرائيلى تسوية سلمية والاعتراف بالوضع الراهن يومئذ ، وكانت بريطانيا تتزعم هذه الحملة ، ونفس هذا التخطيط الدعائى هو نفس تخطيط إذاعة لندن وصوت أمريكا وهو يظهر ويختفى حسب سياسة مصر تجاه هاتين الدولتين .

والواقع أن الإذاعة قد أصبحت اليوم سلاحًا باترًا والسؤال الذى يترامى إلى الأذهان : هل لهذه المحطات فاعلية إذا ماقورنت بالمحطات العلنية سواء فى الشرق الاوسط أو غيره . . ؟

وماالذى تستطيع أن تفعله محطة سرية ولاتستطيعه محطة علنية . . ؟ وهل النوعان السرى والعلنى يكمل بعضهما بعضًا أو يتعارضان ؟ .

والواقع إذا ماحاولنا أن نجيب على هذه الأسئلة نجد غالبية المراجع تتجه اتجاهات مختلفة وعديدة بقدر عدد المواقف النفسية ، ونحن إذا درسنا إدارة المحطة السرية وعرفنا كنه المشرفين سواء أكانوا افراد أم حكومات ، وكيف يعملون ، وظروف عملهم – فإننا سندرك الظروف التى أملت الدور الذى حدد لكل محطة من هذه المحطات المختلفة .

يبلغ إرسال المحطات السرية حوالى ٦,١٥٪ من إرسال المحطات العلنية وإذا ترجم ذلك إلى ساعات يصبح ألف ساعة فى مقابل ١٧ ألف ساعة تذيعها المحطات العلنية الدولية .

والمحطات السرية أصلا تعمل فى المجال الدولى ، وقليل منها يعمل فى المجال المحلى إذا ماكانت تتكلم باسم جماعة ثورية ضد الحكومة الشرعية فى البلاد ، وهى منتشرة بصفة عامة ليس فقط فى الشرق الأوسط بل فى أنحاء أوربا والشرق الأقصى ، ومع ذلك لانستطيع أن نقول إنها ظاهرة دولية ، فمثلا لانجد محطات سرية تقريبًا فى أمريكا اللاتينية أو الشمالية ، وإن تكن قد ظهرت محطة سرية بين الحين والحين ولفترات قصيرة فى البرازيل . . كذلك ليس هناك مايدل على أنه كان هناك محطات ثورية هدامة فى شيلى لمناهضة ثورة الضباط عام ١٩٧٣ وقد يعود سبب غياب المحطات السرية فى أمريكا الجنوبية اللاتينية إلى وجود إذاعات غير

حكومية وإن يكن هذا لايفسر الموقف فى شيلى لوجود عدد هائل من المحطات التجارية التى تشغل الحيزات الأثيرية وتكون من نفسها أيضًا هدفًا للعصابات أو للقوات الثائرة التى قد تستولى عليها ثم تتركها لتعود مرة أخرى إلى صيغتها التجارية ، وهذا ماحدث بالفعل فى ثورة توبامارووس . Tupamaros فى أورغواى .

ولقد ظهرت بعض المحطات السرية فى أفريقيا ولكنها على شىء من الندرة ومن ذلك صوت أنجولا الحرة ومحطة أنجولا المحاربة ، وكانت تشرف عليها حكومتا برازفيل وكنشاسا نيابة عن المقاومة ، وظهرت أيضًا إذاعة التحرير الوطنية لجمهورية غينيا ، ولم يعرف مكانها نظرًا لأنها كانت تظهر وتختفى ، كذلك ظهرت محطة زنزبار وبمبا الحرة ، ومن المرجح جدًا أن جنوب أفريقيا أو البرتغال قد أقامت هذه المحطة لضرب نيريرى والمرحوم د . كرومى حاكم زنزبار .

ومن بين المحطات الأفريقية التى ظهرت فى الماضى محطة تميزت دعايتها بالجودة وبالشدة وبالحط من البريطانيين ، وكان لها تأثير قوى فى شرق أفريقيا وهى محطة صوت أفريقيا الحرة ، وكانت تعمل من القاهرة وظهرت أيضا محطة قرصة أدعت أنها إذاعة لومومبا ، وكثيرًا مانجحت هذه المحطة التى أدارها المستعمرون البلجيك فى توجيه القوات الكونغولية التابعة للومومبا ، نحو كمائن قوية لإبادتها كذلك ظهرت محطة تحرير أقلقت جنوب أفريقيا فى عام ١٩٥٦ .. وكانت تتخذ لنفسها شعار حرف ف (V) بطريقة المورس ، وكان المذيع يعلن مايلى :

« هذه محطتكم » محطة التحرير هنا المقاومة . . إننا ننادى جميع أهالى جنوب إفريقيا الذين يحبون بلادهم ولغتهم وثقافتهم ، والذين يعارضون كل ماتقدمه حكومة البوير » .

وقد سمعت بصفة متقطعة لعدة أشهر ، وكانت تتخذ شعارات تدل على مناهضة الديكتاتورية ، واقترح الكثيرون أن هذه المحطة تعمل تحت إشراف إحدى هيئات ناتال التى تنادى بالانفصال عن جنوب أفريقيا وقد كتب أحد الكتّاب فى النيوز كرونيكال فى أكتوبر عام ١٩٥٦ أن أربعة من الشبان قد ألقى القبض عليهم فى بريتوريا وهم يحاولون التشويش على الإذاعة الحكومية بكلمة كذب .. كذب .. كذب .. بطريقة مورس وقام المخبرون التابعون للقلم المخصوص فى جنوب أفريقيا بالإغارة على مركز للأرصاد الجوية بحثًا عنهم .

وتستضيف محطة إذاعة تنزانيا عددًا من هيئات التحرير الوطنية الأفريقية منها الفريليمو

حتى بعد التغييرات الأخيرة فى موزمبيق ، وهذه المحطات تعتبر إذاعة تحريرية وليست سرية ، نظرًا لأنها تتحدث باسم هيئات التحرير وإن تكن هذه الهيئات غير معترف بها دوليًا ، ونشاط هذه المحطات هدام من ناحية السلطة الغاصبة وإن تكن شرعية . . وكانت هناك أيضًا محطة بيافرا ، ولسوف نشير إليها فيما بعد وكانت هذه المحطة منتشرة برغم عدم شرعيها بسبب أن بيافرا نفسها لم تكن كيانًا قانونيًا أو شرعيًا .

أما عن جنوب أفريقيا فيمكننا أن نقول إن الحكومة العنصرية تعتبر الإذاعة السوداء من ضمن الأسلحة المعترف بها ، والتى تستطيع أن تستخدمها ضد الأفريقيين سواء فى داخلها أو خارجها – والواقع أن إذاعة جنوب أفريقيا تمتلك خدمات دولية قوية ، كما تمتلك محطة تذيع بالبانتو ، وتعمل من أجل الفصل السياسى والثقافى بين الأفريقيين والبيض ، كما أن الجماعات الثورية المختلفة التى تعارض سيطرة البيض فى جنوب أفريقيا لا تستخدم الإذاعات السرية ولكنها تقترض وقتًا من الدول المتعاطفة معها مثل القاهرة ، وتنزانيا ، والجزائر ، وزامبيا والكونغو ، والسبب أنها لا تمتلك حتى الآن مساحات واسعة من الأرض تستطيع أن تقيم عليها محطات إرسال ، أو أنها لم تصل فى كفاحها إلى الحد الذى يدعوها إلى استخدام محطات خاصة بها . أو أنها لاتمتلك من الأموال السائلة مايكفى لشراء وتشغيل جهاز إرسال ، كما أن منظمة الوحدة الأفريقية لاتشجع إقامة الإذاعات السرية ، وهى تفضل أن تعمل بيد نظيفة على أن ترتبط بمحطات سرية ، فقد تتفشى حمى امتلاك هذه المحطات بين دولها مما يؤدى إلى احتكاك سياسى أو عسكرى بينها .

وفيما عدا أمريكا اللاتينية – وإلى حد ما أفريقيا – نجد أن المحطات السرية تؤدى دورًا هامًا كسلاح سياسى وسيكلوجى يكمل العمل السياسى والعسكرى وأساليب غالبية المحطات السرية المستخدمة فى يومنا هذا تشبه أساليب الدعاية السوداء فى الحرب العالمية الثانية ، بل هى نفس الأساليب . . نعم لقد كانت هناك محطات سرية تعمل قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد بدأها الروس بدعايتهم الهدّامة إلى العمال الألمان بأن ينضموا إليهم فى أوائل الثورة البولشفية ، ولكن ظهرت محطات أخرى مابين الحربين الأولى والثانية مثل راديو كورس Corse الحر ، أو المحطات المناهضة للنازية التى تعمل من فوق عربات متنقلة ، بل كانت هناك محطة تعمل لحساب إيرلندا الحرة فى الثلاثينات . . وقد حاولت عصبة الأمم مرارًا تحريم إنشاء مثل هذه المحطات وتنظيم الدعاية الإذاعية . . ونجحت فى إعداد برتوكول وقعت دول عديدة عليه ،

منها مصر ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وغيرها ، وكان يدور حول استخدامات الإذاعة من أجل السلام وكغيره من البروتوكولات التى أبرمت من أجل قضايا إنسانية أو أخلاقية ظهر أنه غير عملى ، فبمجرد أن نشبت الحرب العالمية الثانية بدأت الحرب الأثيرية ، وكانت هناك فى الفترة مابين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٥ أكثر من ٦ محطات دعاية سوداء ، وقد تميز الألمان فى بدء الحرب باستخدام أجهزة الإرسال التى استولوا عليها فى الأقطار المفتوحة خلال زحفهم ، ولكن سرعان ماتمكنت الإذاعة البريطانية من منافستها أوعلى الأقل إظهار أن هذه الإذاعات لاتفصح عن حقيقة مصدرها ، وأنها أصبحت أبواقًا للسادة الألمان ، وفى المواقف الحربية المؤقتة تستخدم جميع العمليات الإذاعية بما فى ذلك الدعاية السوداء ومحطات القرصنة ، كمحطة حركة السلام المسيحى التى كانت تدأب على حض الحلفاء ألا يخوضوا حربًا نهى عنها السيد المسيح ، وأن الافضل أن يسعوا للسلام ، ولكن عندما استمرت الحرب تكاثرت محطات التحرير التى كانت تشرف عليها ألمانيا النازية ، مثل محطة تحرير الهند ، ومحطة تحرير المكسيك ، ومحطة أيوان Iowan التى أسمت نفسها بمحطة ديبنك Debunk

وفى نهاية الحرب ابتكر الألمان نوعًا من المحطات السرية السوداء تهدف إلى إدخال البلبلة على الهولنديين ، وكانت محطة « ارنهيم » تلقى فى روعهم أن يوم التحرير قد اقترب ، كما كانت تحث القوات الحليفة المتقدمة على أن تسير فى خط معين ، واستخدمت هذه المحطة موجة الإذاعة البريطانية من الساعة السادسة صباحًا حتى الحادية عشرة مساءً وأمكن تتبعها وتميز المواد الدخيلة كالأخبار والرسائل التى تزعم أنها صادرة من الأسرى بل أن محطة ارنهيم أصدرت بيانًا فى يناير سنة ١٩٤٥ تشيد بمونتجمرى مع الحط من الأمريكان ، مما أثار الوقيعة بين الأمريكان والإنجليز فى دوائر الحلفاء العليا ، وهذا النوع من المحطات السرية يعرف باسم محطات القرصنة . . وكانت أوروبا ميدانًا مفتوحًا للدعاية السوداء ، وقد قام كثيرون من المهتمين بالمحطات السرية عامة بتسجيل تفاصيلها فى عدد من الكتب التى تناولت تاريخ وأساليب الحرب النفسية . ولعل من أهم هذه الكتب كتاب سيرتى لسفتون ديلمر Sefton Delmarأو المقلاع الأسود Black Boomerageوكان ديلمر مراسلا لجريدة الديلى اكسبريس ثم تولى رياسة الدعاية السوداء البريطانية ، وكان لايتورع عن أى شىء فى سبيل الوصول بدعايته إلى هدفها ، ضاربًا عرض الحائط بالأخلاقيات ، ومناديًا بالغش والتدليس والأكاذيب والرسائل المزورة والظنون والتخمينات وأحيانًا كان يصمم على خلق سلاح قوى

كإذاعة علنية كاذبة لإثارة العواطف من أجل الجدل الأيديولوجى . وديلمر على الرغم من أنه كان معاصرًا للحرب العالمية الماضية ، وكان يعلم دور الإذاعات السوداء فى الحرب فإنه اتخذ لنفسه شعارًا يقول إن أبسط الطرق وأشدها فاعلية فى عمليات الدعاية السوداء أن تبصق فى وجه عدوك ، وفى نفس الوقت تحيِّيه التحية الواجبة ، وكان هذا الشعار منفذًا على طول الخط وبكل دقة ، وقد لخص لنا البروفسير اسابريجز الفرق بين الدعاية السوداء والبيضاء فى الإذاعة البريطانية فقال : كان الإذاعيون فى الدعاية السوداء يهدفون إلى الحط من معنوية بعض الألمان بسبب اتصالاتهم بالإدارات العسكرية ، أما الإذاعة البريطانية فقد اكتسبت نفوذها من أنها كانت تهتم بأمور أكثر من الحط من معنوية العدو .

ولقد أشار جوبلز بمهارة الى الدعاية السوداء فى بريطانيا وكان يعجب بمهارة القائمين عليها فى التلفيق والكذب ، ولاتقتصر الدعاية السوداء على بريطانيا ، فقد شاركهم الأمريكان وإن كان نجاحهم فيها محدودًا خاصة بالنسبة لعملية أنى Onnie وكانت عبارة عن محطة تكتيكية استولوا عليها وقاموا بتشغيلها من لكسمبورج إلى جانب المحطات الهدامة الأخرى التى أشرفوا عليها ، والدعاية السوداء الأمريكية كانت مفضوحة وفجة ، وكان يمكن لأى شخص أن يكتشف كذبها وإفكها ، فمثلا محطة سيبان Saipan التى كانت تعمل من سان فرانسيسكو لليابان استخدمت نفس الموجة التى كانت تعمل عليها رسميًا ، وبالتالى كانت مفضوحة ، وفى الجانب الشيوعى أشرفت موسكو على محطة سرية عهدت بتشغيلها إلى أعضاء اللجنة التى كونتها تحت اسم لجنة ألمانيا الحرة وأعضاؤها من الضباط الألمان الخوارج ، وكان نجاحها محدودًا فى التأثير على غيرهم من الخوارج والفارين والهاربين من جبهة القتال ، ولم يكن لها تأثير إطلاقاً على الألمان أنفسهم ، نظرًا لأن اللجنة وقعت فى تناقض وجدانى بشأن وجاهة الفرار من الجندية ، فكان الروس يؤيدونها فى حين لم يعترف الحلفاء بها ، ومن ثم كان تأثيرها غير أكيد بل مشكوك فيه ، وكان الحلفاء فى ذلك الوقت يظنون أن الروس أقاموا هذه اللجنة توطئة لعقد سلام مستقل مع الألمان ، ومن ناحية الألمان أنفسهم نجدهم لايهتمون بإذاعات اللجنة بل استخدموا وجودها فى الإشارة إلى ماأسموه بالحلفاء غير المتحدين ، أى شاهدًا على اختلاف الحلفاء ، وفى نفس الوقت أقام بعض الألمان محطة سوداء ضد هتلر نفسه ، وكانت تهاجم ستالين لأنه تخلى عن الشيوعية الحقيقية ، فردت موسكو على ذلك بأن أطلقت موجة على نفس موجة المحطة الألمانية مع تخصيص مذيع ليعلق على ما تقوله فى الحال ، تعليقات كلها مرح

وضحك واستهزاء ، وكان التأثير الأول محيرًا للمستمعين ، فكانوا يسمعون مثلا صوت هتلر مع بعض أصوات أخرى تستهزئ به ، ونفس هذه الحيلة – أى تركيب موجة على موجة – اتبعها الألمان أنفسهم مع الحلفاء وكانت النتيجة أن الجانبين تخليا عن الموجة .

وصفوة القول أنه لم ترجح أى كفة من الكفتين فى الدعاية السوداء خلال الحرب العالمية الماضية ، كما فشل الأمريكان فى هذه الدعاية ، أوكما قال بول لينبرج Paul linebarger أستاذ الدعاية النفسية فى أمريكا : « لم ينتصر أحد فى حرب الإذاعة بين إنجلترا وألمانيا على أن انتصار الحلفاء العسكرى قد جعل لبريطانيا القدح المعلى فى النهاية ، ويرى الكثيرون أن البريطانيين فى دعايتهم كانوا أسبق من الأمريكان » .

ولايزال العالم حتى وقتنا هذا يجادل فى أهمية الدعاية السوداء ولكن يسلم الجميع بأن الدعاية السوداء فى بعض الأحيان تساعد فى الأعمال الميدانية ، الأمر الذى أثار الحكومات خاصة فى السنوات الأخيرة وحفزها على دراسة ما حدث فى حرب ١٩٦٧ مع اسرائيل مع تقرير بعض أساليب الدعاية التى اتبعت فى هذه الحرب فى السنوات التالية .

ولقد خاض الحلفاء والدول الاشتراكية الحرب الباردة فيما بعد ، مستخدمين فى غالبية الأحوال الدعاية البيضاء ، ومن المضحك المبكى أنهم استخدموا نفس الأشخاص الذين كانوا يعملون فى محطاتهم السرية أو المحطات السرية المناهضة للنازية ، سواء فى موسكو أو لندن أو واشنطن أو غيرها ، ولقد رأت أمريكا أن تكون بعض إذاعاتها رمادية ، أى ليست سوداء ولا بيضاء ، فمثلا إذاعة أوربا الحرة وراديو الحرية معلومتا المصدر ، وكان الروس يعلمون أنهما أمريكيتان ، وأن العاملين فيهما من اللاجئين الذين يتبعون خطوط الدعاية التى تقررها نيويورك ، والجانب السرى فى هاتين المحطتين هو تمويلها عن طريق وكالة الاستعلامات الأمريكية ، واستمر تمويلها سريًا حتى عام ١٩٧١ ، ثم أعلن عنه بعد اكتشافه ، وهناك صلة بين هاتين المحطتين والمخابرات الأمريكية ، كذلك توجد نفس الصلة بين المحطة القائمة فى ضاحية برلين الأمريكية والتى تعمل تحت إشراف المندوب السامى الأمريكى وتذيع بالألمانية إلى ألمانيا الشرقية ، وهى جزء لايتجزأ من وكالة الاستعلامات الأمريكية مثلها فى ذلك مثل صوت أمريكا ، وقد اشتركت هذه المحطة فى الأزمات التى وقعت بسبب برلين ، وهناك أيضًا محطة روسيا الحرة ، وهى من أبناء عمومة أوربا الحرة وراديو الحرية ومحطة روسيا الحرة تعمل ضد الاتحاد السوفيتى وتتبع ما يسمى باتحاد العمال الشعبى ، وتهتم بتهريب الأناجيل إلى الاتحاد

السوفيتى ، وكانت هذه المحطة تعمل من جنوب كوريا وتايوان ، كما كانت تعمل من جمهورية ألمانيا الاتحادية ، ثم رؤى الاستغناء عن القاعدتين الأوليين : أى كوريا الجنوبية وتايوان ، وفى عام ١٩٧٤ اضطرت ألمانيا الغربية إلى إغلاق جهاز الإرسال الخاص بهذه المحطة فى بافاريا ، وكانت المحطة تعمل فى توجيه إذاعات دينية إلى الروس ودول البلطيق ثم حلت محلها إذاعة أومجا الأمريكية .

وفى عام ١٩٥٦ وبالذات فى شهرى أكتوبر ونوفمبر ، وقبيل الثورة المجرية انضمت الإذاعات المجرية الداخلية إلى إذاعات الدول الغربية لبضعة أيام ، وعملت جميعها فى الدعاية السوداء ، وفى المرحلة الأولى من الاضطرابات عندما كان امرى ناجى متسلطًا على الأحداث ظهرت محطة بوتوفيا Petoefi الحرة ، وقد سميت بهذا الاسم تيمنًا بأحد نوادى المثقفين ، وانضمت إلى محطة كوسوث Kossuth الرسمية ، ولكن سرعان ماغزا الروس البلاد ، فتحولت محطة كوسوث إلى الدعاية السوداء ومعها محطة بوتيفيا . وأحدثت محطات أخرى تذيع بلغات متعددة إلى جانب اللغة المجرية قصد تحميس الشعوب الأجنبية إلى مد يد المساعدة للمجر وفى خلال الهدنة القصيرة الأمد التى وقعت فى أثناء القتال غيرت محطة موسكو اسمها إلى محطة المجلس الوطنى لشمال وشرق المجر ، ولم يكن هذا التغيير السطحى الشكلى كافيًا فى حد ذاته ، ولم يكن له داع ومخاصة كانت هناك محطات أخرى مثل محطة راجيك الحرة ، ومحطة سالجوتريام Salgotarjam العاملة مع المقاومة ومحاربة السوفيت . وفى الرابع من نوفمبر كانت النهاية فى الساعة الواحدة والنصف تقريبًا عندما أذاعت محطة بوتوفيا Potoefi الرسالة التالية « ياشعوب أوربا أيتها الشعوب التى ساعدناها قرونًا من الزمن فى صد الغارات البربرية من آسيا استمعوا إلى أجراس الكنائس المجرية تعلن الخطر الداهم . ياشعوب أوربا أنقذونا . . يا شعوب العالم المتحضر إننا نهيب بكم باسم العدالة والحرية والمبادئ الأخلاقية التى تجمعنا بكم وتعمل على تكاتفنا الإيجابى أن تساعدوننا ، السفينة تغرق والنور يخبو ، والظلام يزداد سوادًا ساعة بعد أخرى ، اسمعوا ، إننا نهيب بكم يا شعوب العالم المتحضر افعلوا شيئًا قدموا لنا مساعدتكم أنقذونا . . أنقذونا وليكنْ الله معكم . . وبعد هذا النداء توقفت المحطة تمامًا . .

وهذه المحطات السرية لم تعش وقتًا طويلا ، ولم يكن لها تأثير ضد الدبابات والمدافع الروسية ، ولكن كان لها تأثير معنوى كبير على الثوار ، كما أدت دور المنسق فى وقت الاضطرابات ، وبدون هذه المحطات ماكانت المقاومة تقاوم بمثل ماقاومت به من شراسة

وعنف ، وماكان تشبك والسلوفاك يستخدمون الإذاعة هذا الاستخدام الفعال فى عام ١٩٦٨ ، والواقع لقد تركت إذاعات التحرير أثرًا كبيرًا فى رومانيا ، خاصة ذلك القسم المعروف باسم ترانسيلفانيا ، والذى يتكلم المجرية حيث هب السكان لاليساعدوا إخوانهم عبر الحدود بل لينادوا بالانفصال عن رومانيا والعودة إلى المجر ، ومن ثم فتحوا الجروح القديمة التى تمس كرامة رومانيا الوطنية ، نعم لقد أذاعت محطة بوخارست تكذيبًا باسم محطة Kossuth الحرة ومحطة موسيكول Muskole من أن ترانسلفانيا قامت هى أيضا بالثورة ، وغنى عن البيان أن هذا التكذيب كان من الأمور العادية التى لابد من الإعلان عنها ، برغم أن التقارير المجرية فى ذلك كانت صحيحة مائة فى المائة . . وظهرت بعد ذلك محطة سرية تحت اسم إذاعة رومانيا المستقلة ، وقد حاولت هذه المحطة أن تظهر فى عام ١٩٥٦ ولكنها فشلت فى الظهور وتميزت محطة رومانيا المستقلة بأنها كانت تذيع فى المرحلة الأولى من الثورة المجرية نداءات ضد الروس . . وتطالب باستقلال بوكفينا Bucovina وباسارابيا Bessarabia ، وهما المقاطعتان اللتان ضمهما الاتحاد السوفيتى إليه بعد الحرب العالمية الثانية .

وفى تشيكوسلوفاكيا استمرت الإذاعات السرية بطريقة عجيبة تؤيد مبادئ دوبشيك ، متحدية الروس ، رافضة النظام الجديد الذى فرض على تشيكوسلوفاكيا أثر غزو الروس لها فى ٢٠ أغسطس عام ١٩٦٨ ، ولقد حدث فى المرحلة التالية للغزو أن ظهرت محطات إذاعة محلية معادية للاتحاد السوفيتى وكانت تعمل من أماكن سرية فى الولايات المحلية ، وقيل فى ذلك إن المسئولين عن الغزو الروسى إما أن يكونوا على قدر كبير من عدم الكفاءة فى تتبع هذه المحطات والقضاء عليها ، أو أنهم يريدون أن يعرفوا جميع المشايعين لأعدائهم ليعتقلوهم مرة واحدة ، والواقع أن الرسائل التى أذاعتها هذه المحطات كان لها تأثير فى الشعب التشيكوسلوفاكى والشعوب المجاورة ، على الرغم من أن قوتها كانت ضعيفة ، وكانت الدول الغربية تلتقطها وتعيد إذاعتها على المحطات القوية الموجهة لتشيكوسلوفاكيا ، كما عملت على تقوية الروح المعنوية وخلق نوع من الاحترام الذاتى والكرامة بين التشيك .

ومن ناحية الروس نجدهم يتشككون فى أصل هذه المحطات ، فإذاعة محطة راديو موسكو تعلن فى أوائل سبتمبر عام ١٩٦٨ أن عددًا صغيرًا جدًّا من المحطات السرية كان يعمل فى تشيكوسلوفاكيا بعد الغزو ، ولكن لمدة أيام قليلة ، فى حين كانت غالبية هذه المحطات تعمل

من ألمانيا الغربية مستخدمة موجات لم تكن مستخدمة ، بل اتهمت إذاعة موسكو الإذاعة البريطانية بأنها بتأييدها هذه الإذاعات المزورة عملت مع وحدات الحرب النفسية فى ألمانيا الغربية وأظهرت الإذاعة الروسية أن حلف الأطلس قد تلقى درسًا سيعيه طيلة الحياة عندما خفت القوات الروسية إلى إخماد الاضطرابات التى أثارها الغرب بدون أن يستطيع الحلف أن يمد يد المساعدة إلى المناطق التى حدثت فيها الاضطرابات .

ومهما يكن من حقيقة هذه المحطات السرية فان الروس بدورهم أقاموا محطة سرية أسموها محطة فالتوفا Valtava وبدءوا تشغيلها فى ٢١ أغسطس مستخدمين أجهزة الإرسال القديمة التى كانت فى دريسدن وتطلق دعاية سوفيتية لمدة ١٩ ساعة يوميًا باللغة التشيكوسلوفاكية ، وفى نهاية شهر نوفمبر احتج الموظفون التشيك الذين أتى بهم الروس فى مراكزهم الجديدة ببراغ على عنف لهجة هذه المحطة ، معلنين أن استمرارها سيضر بمشروعاتهم للعودة إلى الحياة الطبيعية ، وكان لهذه الاحتجاجات أثرها ، فهدأت هذه المحطة من لهجتها ، بل غيرت اسمها إلى محطة برلين الدولية ثم اختفت فى منتصف فبراير ١٩٦٩ ، وبهذا تكون هذه المحطة المضادة مثل المحطات التى أقامها الغرب للدفاع عن تشيكوسلوفاكيا عقيمة النتائج وعديمة الجدوى .

وقد أشرفت موسكو منذ الحرب على عدد من المحطات السرية التى كانت تديرها الأحزاب الشيوعية المحرمة فى عدد من البلاد الأوربية وإيران ، وكانت هذه المحطات تذيع حوالى ٢٠٠ ساعة أسبوعيًا وهى إذاعة أسبانيا Espana المستقلة وراديو البرتغال الحر وكان مقرهما قرب تيمسورا Timiseara جنوب غرب رومانيا و[إذاعتنا] با للغة التركية وصوت الحق با ليونانية واذاعة ايران التى كان يديرها حزب تودا وقد بدأت هذه الإذاعة السرية تعمل فى نهاية عام ١٩٧٥ كإذاعة علنية ضمن إذاعات ألمانيا الشرقية الموجهة من ليبزج ، ثم أضافت الإذاعة الألمانية خدمتين جديدتين إلى الفارسية إحداهما بالكردية والأخرى بالأزر باجانية ، وفى عام ١٩٦٣ اضافت اللغة العربية إلى خدماتها ، ولكنها حولت فيما بعد إلى خدمة خاصة أسموها بصوت الشعب العراقى وكانت هناك فى جانب الحلفاء إذاعات سرية أخرى باليونانية ، والإيطالية ، والتركية ، تعمل من ألمانيا الغربية من ناحيتى بورج ومجدبورج ، وتتجه إلى ألمانيا الشرقية للجاليات الإيطالية واليونانية والتركية بها .

وقام التشيكوسلوفاكيون بتعزيز المحطات الروسية ، فأقاموا محطات للدعاية إلى إيطاليا فى عام ١٩٥١ ، ولم يعرف أحد من أين تصدر فى الثلاث السنوات الأولى لها ، ثم اعترفت براغ

بأنها صاحبة هذه الإذاعة ، وأمام ضغط الايطاليين واحتجاج الإذاعة البريطانية بسبب استخدام التشيك للموجة التى يذاع عليها البرنامج الايطالى من لندن أغلقوا هذه المحطة السرية فى مارس ١٩٧١ ، وقامت تشيكوسلوفاكيا أيضًا بإنشاء محطة سرية تحت عنوان هذا المنساء فى فرنسا ، ولكن نقلت الإذاعة فيما بعد إلى المجر ثم بولندا ، وقد ظهرت فى الأثير أيضا محطة سرية صادرة من دولة شيوعية إلى دولة شيوعية أخرى بسبب النزاع الصينى السوفيتى تحت اسم الشرارة ، وقام بتشغيلها عدد من الصينيين من أعضاء الخلية الشيوعية رقم (٢٨) التى ألفت فى جامعة صن ياتسن Sun yatsen فى موسكو ، وكانت تذيع دعاية موجهة إلى الصين وضد ماوتسى تونج ، وهناك إذاعة أخرى اشتركت فى نفس جهاز إرسال الشرارة تحت اسم إذاعة حزب الشعب الشيوعى الصينى معلنة رفضها لحزب ماوتسى تونج ، منتقدة إيّاه بأنه لايلتزم بمبادئ ماركس ولينين ، وانتقم الصينيون لهذا العدوان الأثيرى فعززوا محطة كزخستان القومية ، وشنوا حملة علنية ضد روسيا تؤيدها إذاعات مسجلة على أشرطة بطريقة معكوسة ، وذلك لإرباك القائمين على التشويش فى الاتحاد السوفيتى وتمكين المستمعين المؤيدين للصين من تسجيل هذه الأشرطة المعكوسة ، ثم إعادة إدارتها بالطريقة الصحيحة ، فيستمعون إلى الرسائل الموجهة إليهم ، وتقدم آخرون بتفسير قد يكون أقرب إلى الصحة ، هو أن الصينيين يحاولون عن قصد خداع رجال التصنت على الإذاعات فى موسكو ، وتأخيرهم فى تحليل الدعاية الصينية أطول مدة ممكنة ، وذلك بعد إدارة الشريط بالطريقة الصحيحة حتى لا يردوا على الصينيين فيكتسب هؤلاء بعض الوقت وتثبت دعايتهم ، ولكن كل ذلك أعمال صبيانية

والواقع أن نشاط الدعاية الصينية السرية قد أدى إلى ارتباك شديد فى الترددات فى الشرق الأقصى ، أضف إلى ذلك سرعة التغيرات السياسية التى تطلبت سرعة مماثلة فى الدعاية ، فى حين يحتاج المخططون بعض الوقت لإعداد تخطيطاتهم ، ولكن سرعة التغيرات السياسية قد اضطرت المخططين الأمريكيين إلى إجراء تعديلات سريعة ، مثال ذلك موافقة أمريكا على الانسحاب من جنوب فيتنام مما أدى إلى إغلاق إذاعة صوت الميليشيا الوطنية ، وهى إذاعة سرية كانت تشرف عليها المخابرات الأمريكية ، وإلى جانب هذه المحطات السرية التى عملت فى الشرق الأقصى كان يوجد عدد من المحطات انتهى أمرها فى الوقت الحاضر ، من بينها محطتان كانتا تعملان ضد سوكارنو ، هما محطة أندونيسيا الحرة ، ومحطة السلبيس ، وكلتاهما

أمريكية ، وهناك أيضا محطة اليابان الحرة التى أقامتها الصين ، والتى اتخذت لها مقرًا فى جبال قريبة من طوكيو نفسها ، وكانت تعمل بواسطة يابانيين تابعين للصين ، وأغلقت هذه المحطة أبوابها فى عام ١٩٥٦ وحلت محلها إذاعات علنية من بكين ، والواقع أن أقسام الاستماع لاتكل عن اكتشاف المحطات السرية ولكنها لاتستطيع على وجه التحقيق التأكد من مصدرها .

ومن الواضح أن بعض هذه المحطات السرية كانت تعمل من الصين نفسها مثل صوت شعب بورما ، وصوت الثورة الملاوية ، وصوت شعب ثاى وكان البعض الآخر يعمل من أمكنة خطرة بعض الشىء مثل محطة باتيلاو ، وكانت أجهزة إرسالها موجودة فى كهوف جبلية وأماكن محصنة فى المناطق المحررة عند لاوس ومحطة التحرير الفيتنامية وهى لسان حال الحكومة الثورية المؤقتة لفيتنام الجنوبية ، وكانت تملك خمسة أجهزة إرسال قوية منتشرة فى كمبوديا وهانوى ، وكانت ترسل إذاعاتها بلغات عدة ، منها الإنجليزية ، والفرنسية ، ولاوس ، والفيتنامية ، وكان لديها برنامج عام محلى إلى جانب الإذاعات الدولية ، وكانت هناك محطة سيهانوك أو محطة الجبهة الوطنية لكمبوديا ، ولكنها كانت تقترض أجهزة إرسالها من شمال فيتنام ، كذلك قدم راديو بكين للأمير سيهانوك نفسه بعض الوقت على موجاته ، وقد حاولت وكالة الاستعلامات الأمريكية أن تقيم محطة تشبه هذه المحطة الأخيرة ، واستأجرت بعض الناس ممن يشبه أصواتهم إلى حد كبير صوت الأمير سيهانوك ، ولكن فشلت التجربة ، وكانت هناك محطة شيوعية تدعى أنها محطة محايدة تعمل تحت اسم صوت كوريا الجنوبية بإشراف الحزب الثورى لتوحيد شطرى كوريا ، وقد عملت هذه المحطة من كوريا الشمالية .

وإذا ما استعرضنا الجانب المضاد للشيوعية فى الشرق الأقصى نجد هناك إذاعة صوت الشرق التى أقامها الأمريكان فى كوريا الجنوبية لتخاطب مواطنيها فى اليابان ، وهناك محطات عديدة أخرى لايمكن حصرها عملت فى الشرق الأقصى .

وقبل أن نترك هذه المنطقة أود أن أشير إلى نموذج خاص من المحطات السرية يشير إلى بعض الدوافع لإنشاء هذه المحطات وبعض أسباب الإحباط والفشل التى تصادفها .

كانت بورما تحت حكم نيوين العسكرى الانعزالى منذ عام ١٩٦٢ ، وكان يتبع سياسة محايدة وهو لا يعادى أحدًا ولايكتسب أصدقاء جددًا فى العالم الخارجى ، واستطاع بذلك أن يعزز مركزه ويضعف مركز سلفه بونو ، ولكن هذه السياسة لم تمنع بونو من إقامة محطة معادية

فى مدينة شيانج ماى بشمال سيام ، وأشرف على إدارتها ثلاثة من قواده العسكريين ، ولقد صادفت جبهة التحرير المتحدة صعوبات جمة فى إقامة هذه المحطة برغم التعزيزات المالية التى تلقتها من أمريكا ، والتى هبت إلى نجدة بونو على أمل أن تتولى استغلال زيت البترول القريب من السواحل الجنوبية . وكانت هذه المحطة ضعيفة كما كانت عملية التشويش عليها قوية للغاية ، وفى ٤ يونيو سنة ١٩٧٢ تقدمت الجبهة الوطنية المتحدة بكلمة ختامية من المحطة قالت فيها : « أيها المستمعون .. أيها الاباء .. أيها الشعب ابتداء من السادس من أبريل سنة ١٩٧٣ توقفت محطة جبهة التحرير المتحدة وكنا نرغب فى بناء محطتنا الجديدة فى منطقة حرة قريبة من شعبنا فنحن فى حاجة إلى رضاء آبائنا وشعبنا علينا ، وعندما توقفت المحطة تعين على العاملين فيها أن يعبروا سلسلة من الجبال والأدغال ، ومع ذلك كانوا سعداء وهم لاتعوقهم الجبال أو الأدغال ، وهاقد وصلنا إلى ناحية جديدة لمحطتنا التى نقيمها بأنفسنا ، ولتعلموا أنه ليس من السهل أن نعبر الجبال والغابات حاملين فوق ظهورنا أجهزة الإرسال والتسجيل ، لقد وصلنا إلى هذا المعسكر وأقنا به محطتنا ، ولسوف نتركه إلى معسكر آخر فى المناطق المحررة قريبًا » .

ويبدو أن المحطة فى مكانها الجديد كانت أكثر وضوحًا وفاعلية ، ثم أعلن بونو استقالته كزعيم للمعارضة ورحل إلى أمريكا ليدرس هناك فلسفة البوذية ، هذا الخبر سجلته محطة الجبهة الوطنية وأذاعته ، ثم نقلته الإذاعة البريطانية وعنها أذاعته محطة بورما واهتمت به وعلقت عليه ، أما محطة الجبهة فكانت إشارتها ضعيفة ولم يعتد بها أحد فى بورما .

وأقامت الصين محطة سرية تحت اسم صوت بورما ، وكانت لسان حال حزب بورما الشيوعى الموالى لماوتس تونج وكانت تغطى بورما بموجة قوية ، والواقع أنها كانت أقوى من محطة الجبهة على أن صوت بورما لم يكن قوى التأثير بسبب صلاته الأجنبية واتصافه بنفس الصفات التى تتصف بها إذاعة بكين ، أى أن إذاعته كانت مملة غير واضحة ، بعيدة عن الشعب ومشاعره ، ويبدو أن نيوين لم يكن يهتم بهذه الإذاعات السرية ، فما من شىء كان يثير اهتمامه غير نشوب معارك عند الحدود مع الدول المجاورة ، أو اقتتال العصابات وبالنسبة للمعارضة فى بورما التى كانت تنتظر سقوط نيوين فقد كانت تهتم كل الاهتمام باستمرار المحطات السرية ، وتعلق عليها الآمال من أجل الوصول إلى الحكم ، ونفس هذا الشعور نجده عند كثير من الجماعات المعارضة أو الأقليات فى مختلف أنحاء العالم والمعارضة كقاعدة عامة تهتم

بإقامة محطات تعارض الحكم القائم عن طريق بث رسالتها بين الشعب فى المناطق محط النزاع ، ومثال ذلك أن الجالية التركية فى قبرص أقامت محطة كاملة من أجل توحيد الصف التركى ضد القبارصة اليونانيين ، وكان هذا الإجراء من جانب الجالية التركية ضرورياً أمام أحداث صيف ١٩٧٤ ومازال الموقف فى قبرص غير واضح ، إذ لم تنته المشكلة القبرصية حتى كتابة هذه السطور ، ولقد بلغ عدد المحطات التى عملت من القطاع التركى فى الجزيرة أكثر من خمس محطات حتى أوائل عام ١٩٧٦ ، وكانت جميعها تذيع باللغة التركية ، وهى إذاعة بيرق وجميلا ودوجانين سيسى Dogunin Sesi وغازى يافن سيسى وليفكا سنجق ، وكانت جميعها تؤيد حقوق الأقلية التركية فى الجزيرة كما كانت تعلن أن لاصلة لها بالإدارة التركية ، وأنها لاتعتمد عليها فى أخبارها ، ولكن الحقيقة أنها كانت تعتمد على الإدارة التركية من أجل الحصول على المال اللازم لها ، وتعتبر إذاعة البيرق أكبر إذاعة فى قبرص ، وبها قسم للإذاعات الدولية يذيع باليونانية والإنجليزية ، ويدعى أن له مستمعين فى لبنان وإسرائيل إلى جانب اليونان وتركيا والمستمعون الأتراك فى قبرص يستطيعون الاستماع إلى محطتين أخريين تعملان على الساحل الجنوبى للجزيرة ، هما صوت أبطال بافوس Paphos وصوت الفالكون Falcon وجميع هذه المحطات تمت إقامتها فى قبرص بعد الحرب القبرصية التركية عام ١٩٦٣ ويبدو أن اليونان لم تهتم بإقامة محطات سرية مماثلة فيما عدا صوت قبرص الحر الذى كان يؤيد الأسقف مكاريوس فى أحداث عام ١٩٧٤ .

أما فى إيرلندا الشمالية فيبدو أن الإذاعات السرية لم تستطع أن تشارك فى المعارك الدموية التى جرت فى شوارع الستر Alster واستخدم فيها الطرفان المتنازعان القنابل والمدافع على الرغم من أن الظروف كانت تشجع على قيام دعايات مركزة من الجانبين ، وقد ورد فى كتاب كيف تستمع إلى العالم لمؤلفه Laurence E. Maqne مايشير إلى وجود تسع محطات منها أربع محطات بروتستنتية متفرقة ، وخمس كاثوليكية وإيرلندية وماركسية ، وجميعها محطات صغيرة وتعمل بصورة متقطعة ، كما أنها تتخذ بلفاست مقرًا لها ، وتعتبر محطة ديرى الحرة أقدم محطة سرية فى شمال إيرلندا وتشرف عليها جماعة المقاومة الاشتراكية منذ تولى أمرها الثوار الإيرلنديون ، وهى تعمل على جهاز إرسال قوته ٢٥ كيلو وات فى منطقة المستنقعات قرب لندن ديرى ، وأحيانًا كانت محطة إرسال راديو الحرية التابع للثوار تعمل من كريجان Creggan أومن Boggside اندرسانتاون فى بلفاست ، وهذه المدينة تضم صوت بلفاست

الحر الذى تهيمن عليه الهيئة الاشتراكية التى تسمى نفسها بالديمقراطية الشعبية .. وهناك أيضا محطة العمال ، وهى الصوت الرسمى للثوار ، وقد بدأت عملها عام ١٩٧٢ ، ويبدو أنها قوية فى منطقة مساقط المياه ، أما محطة الجمهوريين والتى تسمى Na Pablacha التى تذيع دعاية ماركسية والتى تنشر إعلانات مسبقة فى صحف دبلن عن برامجها فتعمل بالقرب من العاصمة ، أما المحطات البروتستنتية الأربعة وتوجد فى بلفاست ، صوت حركة رواد لامتر ، وقوتها عشرة وات ، وإذاعة الدفاع وتوجد فى بلفاست ، وهى صوت حركة رواد لامتر ، وقوتها عشرة كلو ، وإذاعة الدفاع الحرة وتشتهر بدعايتها البذيئة ضد الكاثوليك ، وباسطواناتها المخشخشة والتى تضطر إلى التوقف كل ثلاث أوأربع ساعات ، حتى يبرد جهاز إرسال محطة Gnomes والمسماة على اسم المقاتل جنوسى الذى كان يعمل فى هولندا فى القرن التاسع عشر ، وأخيرًا محطة انترمم ، وتذيع أحدث الألحان ، وتعمل مع الاتحاديين وهى محطة سرية جديدة من نوع محطات القرصنة ، والواقع أن جميع هذه المحطات تعمل على نفس الموجات للمحطات الرسمية ، ومن ثم فهى محطات قرصنة .

وقوات الأمن البريطانية فى شمال إيرلندا لاتهتم بهذه المحطات ، بل تستخف بها وتزعم بأن هناك محطتين رسميتين لحركة التحرير الإيرلندية هما محطة ساورس Saorse ومعناها محطة الحرية فى منطقة مساقط الماء فى بلفاست ، وبدأت عملها فى عام ١٩٧٠ ومحطة ديرى الحرة فى منطقة لندن ديرى ، وتعمل من عام ١٩٦٩ ، وإلى جانب ذلك اكتشفت أجهزة التصنت التابعة للجيش البريطانى محطة بروتستنتية تسمى نفسها محطة Shanbill أما عن الجانب الكاثوليكى فلم ترد فى تقارير الجيش البريطانى مايدل على وجود محطات مضادة ، وقد يكون من المحتمل أن أجهزة التصنت فى القوات العسكرية البريطانية قد فشلت فى التعرف على المحطات التى تعمل ليلا ، وحتى إذا كان الأمر كذلك فمعنى ذلك عدم وجود محطات فى شمال إيرلندا تعمل مع أو ضد الجانب البريطانى ، أو أن الجهات الرسمية لم تستخدم الدعاية السوداء ضد الثوار الوطنيين .

وقد يتساءل المرء لماذا تعمل المحطات السرية برغم كثرتها فى الكفاح المرير غير الأكيد فى شمال إيرلندا ؟ ومافائدتها بالنسبة للقضية الوطنية ؟ وبالتالى لماذا تكتفى بهذا التأثير البسيط لها فى الناس ؟ وقد يكون الرد على ذلك أن هذه الحالة إنما هى انعكاس لفوضى الصراع فى شمالى ايرلندا هذه الفوضى عنصر يؤثر بدون شك على الدعاية الموجهة إلى العالم الخارجى الذى قد

لايدرك حقيقة الحال داخليًا ، وقد لا يهتم بها لولا وجود عمليات قتالية بها مآسى إنسانية . ومن المعروف أن حركة التحرير الإيرلندية والمتطرفين البروتستانت قد اندمجوا معًا ، وكانوا من قبل فئات متناثرة من جماعات شتى ليس لها خط دعائى ثابت ، وفوق هذا وذلك نجد أن الدعاية تتناول حواشى الشكل دون لبه بسبب وجود وسائل الاتصال الأخرى ، وهى وسائل صالحة ومفيدة ، نظرًا لصغر حجم منطقة العمليات العسكرية ، ونظرًا لأن المشتركين فيها قد أفصحوا مرارًا وتكرارًا عن أهدافهم . ومعنى هذا أن أخطار تشغيل محطة غير شرعية ونفقاتها لاتتفق أو تتكافأ مع الأهداف التى قد تحققها هذه المحطة .

وهذا القول لاينطبق على جميع حركات التحرير ، فهناك مثلا حركة التحرير الجزائرية ضد فرنسا ، فقد كان القتال بينها وبين الفرنسيين مريرًا ، وكانت أهدافها فى الحرية والاستقلال معروفة ، ومع ذلك أدت الإذاعة دورًا هامًا للغاية ، ومن حسن الحظ أن دور الإذاعة فى الحرب الجزائرية قد واكب عملية انهاء الاستعمار ويقول فرانز فانن : ان صوت الجبهة الوطنية للتحرير قد ظهر من لاشىء . ولكنه تمكن من جمع الأمة الجزائرية على أمر واحد وإلهاب شعورها ، ونجح فى إشعار كل مواطن بموقفه بصورة واضحة كل الوضوح ويقول Fanon فى كتابه الاستعمار يحتضر : « إن صوت الحرية أو صوت القتال يعتبر مثلا طيبًا على دور الإذاعة السرية غير المباشر فى النزاع السياسى والعسكرى ، حيث إن الظروف مواتية لإظهار فاعليه الراديو وأثره » وقد كادت وظيفته قبل عام ١٩٤٥ تكون مقصورة على إسعاد الأوربيين ، وكان من يستمع إليه هم الأوربيون ، بدليل أن ٩٥٪ من أجهزة الاستقبال كانت مملوكة للأوربيين فى الجزائر ، وكان راديو الجزائر عبارة عن صورة طبق الأصل من اذاعه لإذاعة فرنسا من باريس ، وهى إذاعة تعتبر أصلا وسيلة أو أداة لخدمة مجتمع استعمارى ، وتقوم بشرح قيم هذا المجتمع وتشيد بها ، وكانت الإذاعة فى ذلك الوقت عاملا قويًا فى عملية التفرقة الثقافية والسياسية بين البيض المتوطنين فى الجزائر والوطنيين ، وبالتالى كان الجزائريون أنفسهم يرون فى الإذاعة الجزائرية بل فى كل إذاعة سمة لا أخلاقية ، ولم يكن المسلمون الجزائريون لهذا السبب يقبلون على الاستماع إليها ، خاصة أنها كانت تتحدث فى الجنس بطريق ملتوية ، ولكنها مفهومة ، كما كانت تحقر أهل البلاد الأصليين أو تذيع برامج فكاهية تحط من قدر الجزائريين ، ولم يكن للجزائريين نصيب فى عملية التدين التى قيل إنها من وظيفة الإذاعة ، بمعنى أن إذاعة الجزائر كانت تعنى فقط بالمتوطنين المحتلين ، وفى نفس الوقت كان

المتوطنون الأوربيون البيض يعلنون أنهم لولا النبيذ والخمر والإذاعة لانحطوا إلى مصاف العرب الجزائريين .

وبعد عام ١٩٥٤ بدأت الثورة الوطنية تنتشر فى جميع أنحاء البلاد أى بدأ الجزائريون يهتمون بالإذاعة ، حتى وإن اقتصر ذلك الاهتمام على الاستماع للإذاعات الدولية من الدول العربية المتحررة وبعض البلاد الأجنبية فى أول الأمر ورأت فرنسا فى محاولة استمالة الجزائريين بتلوين راديو الجزائر بالصبغة الوطنية الجزائرية ، وبتشجيع مبيعات أجهزة الاستقبال مع مساعدة الجزائريين العاديين بطريقة مباشرة على تفهم الأوضاع والأحداث إثر قيام المقاومة فى أوائل نوفمبر عام ١٩٥٤ ومعنى تفهم الأوضاع بالنسبة للفرنسيين شرح وجهة نظرهم المتحزبة عن طريق الراديو ولقد أدرك الوطنيون أن إذاعة الجزائر كانت متحزبة فى عرضها الأحداث ، وأن عليهم مواجهة هذه الدعاية التى تشرف عليها فرنسا وتنفذها ، وكانت محطة الجزائر التابعة لفرنسا تعلن يومياً بأن القوات الفرنسية قد نجحت فى القضاء على فلول العصابات المتبقية ، أى أن المستمع الجزائرى كان مجبرًا على الاستماع إلى هذه الدعاية التى ترمى إلى تحطيم معنويته وأمله فى التحرير ، على أن إيمان الجزائريين بقضيتهم وإصرارهم على مواجهة هذه القضية قد مكنهم من أن يبرءوا عن أنفسهم حالة اليأس التى حاولت السلطات الفرنسية فرضها عليهم برغم الإشاعات التى كان الفرنسيون يطلقونها بغرض إثارة التشاؤم والهزيمة بهم ، غير أن بعض الصحف الفرنسية ولاسيما الموند والإكسبريس اهتمت بنشر الأخبار الصحيحة ، وعندما أقبل الجزائريون على هذه الصحف أدركت السلطات الفرنسية مغبة هذا التحول عن الإذاعة إلى هاتين الصحيفتين ، فمنعت بيعها للجزائريين ، ولما كانت غالبية الشعب الجزائرى تجهل القراءة والكتابة ، ونظرًا لأن الصحف الفرنسية المعتدلة لم تكن تصل إلى أيدى الجزائريين – رأت السلطات الوطنية الجزائرية المقاتلة الاعتماد على محطاتها السرية والمحطات الدولية لشرح تطور المقاومة ، وكان الحصول على جهاز استقبال فى الجزائر عام ١٩٥٥ يعنى فى واقع الأمر تمكين صاحبه من الحصول على أخبار الثورة من مصادر غير فرنسية .

وقد اهتم الشعب الجزائرى بشراء هذه الأجهزة ، خاصة عندما علم بأن هناك أعدادا من الجزائريين الأحرار فى القاهرة يستخدمون موجات الإذاعة المصرية ، سواء صوت العرب أو البرامج الدولية لإرسال الأخبار الحقيقية عن تطور الكفاح ، وهكذا وبمرور الوقت كانت إذاعات القاهرة ثم تبعتها إذاعات سوريا بل أكثر الإذاعات العربية تقوم بكتابة الصفحات

اليومية لجهاد إخوانهم الجزائريين فى الجبال ضد الفرنسيين ، وبالتالى بدأ الجزائريون يعودون إلى بلادهم للاشتراك فى الكفاح ، ولم تكتف الثورة الجزائرية باستخدام صوت العرب والبرامج الدولية من القاهرة على الرغم من أهمية الدفاع عن القضية الجزائرية ، بل أقامت فى نهاية عام ١٩٥٦ صوت الجزائر الحر ، ولم تكن هذه الإذاعة مجرد إعلان للناس أن تستمع للراديو بل عملت على توحيد الروابط بين زعماء الثورة والشعب والأحرار الذين كانوا يحاربون المستعمرين الفرنسيين ، وابتداء من عام ١٩٥٦ كان يعنى شراء جهاز استقبال فى الجزائر الحصول على الوسيلة الوحيدة للاتصال بالثورة والتعايش معها ، لامجرد الحصول على أخبارها ، وهكذا كانت الإذاعة عاملا إيجابيًّا فى ثورة الجزائر ، وأمكن ثورة الجزائر الحرة أن تغير رأى شعب الجزائر نحو الإذاعة بعد أن كان يعتبرها وسيلة تخدم المستعمر وحده ولكن بعد استخدام إذاعات القاهرة وقيام محطة صوت الجزائرأصبحت الإذاعة وسيلة هامة يستخدمها الوطنيون من أجل بلادهم . وعندما وجد الفرنسيون إقبال الجزائريين على إذاعات جبهة التحرير الجزائرية كبيرًا أصدروا أمرًا بتحريم بيع أجهزة الاستقبال الإذاعية ، إلاّ إذا حصل المشترى على ترخيص من قوات الأمن الفرنسية يسمح له بشراء جهاز ، وفى نفس الوقت بدأت فرنسا فى التشويش على الإذاعات الجزائرية ، وكان من نتيجة التشويش أن زادت فاعلية الإذاعة وأصبح الناس يسندون إليها توجيهات وأقوالا فى غير صالح الفرنسيين لم تكن قد أذاعتها ، وهكذا نجد أن الإذاعات الصادرة من القاهرة ومن صوت الجزائر تمثل فى نظر الجزائريين الحقيقة على رغم ماكان يعتريها من أصوات مزعجة أو خفوت أو تداخل يمنع وصولها واضحة ، وكلما حاول الفرنسيون منع الناس من الاستماع للقاهرة أو مصادرة أجهزة الإرسال الصغيرة التى كانت تستخدمها بعض كتائب القوات الجزائرية ازداد الشعب فى تصميمه على الاستماع إلى هذه الإذاعات الوطنية برغم عدم وضوحها ، وكان الجزائرى يشعر بعزة قومية عندما يلتقط على جهازه محطة عربية وطنية ويستمع إلى أخبارها . . . والحقيقة أن أخبار الجزائر وظروفها كانت تشبه ظروف فرنسا عندما كانت قوات ديجول فى المنفى تذيع رسائلها من لندن ، وبالنسبة لإذاعة الجزائر وإذاعة صوت العرب فإنهما أدتا دورًا أكبر من صوت فرنسا الحرة خلال الحرب العالمية الماضية ، فقد خلقتا أسلوبًا وطنيًّا للحديث ، ووعيًا قوميًّا جديدًا ، بل تغييرًا أساسيًّا فى الشعب وسلوكه .

وقد يكون من المبالغ فيه أن نسند كل ذلك للإذاعة باعتبارها العامل الوحيد الذى تسبب

فى هذه التطورات ، ولكن يمكن القول إن الشعور الوطنى كان هناك فعلا ، وإن الناس كانوا على وعى وطنى ، ولكن النقطة الرئيسية أن الثورة الجزائرية قد اعتمدت فعلا وبشكل كبير على الإذاعة باعتبارها الوسيلة المثلى التى تستطيع أن تصل عن طريقها إلى الشعب وتحادثه بلغة يفهمها وأن ينظر إليها كصديق عزيز وليس كعدو ، كما كان يحدث أيام خضوع الإذاعة إلى الادارة الفرنسية ، أما من ناحية الإذاعة الفرنسية ذاتها فلاحظ أنها اقتصرت فى دعايتها المضادة على الترويج لما تعتبره أرباحًا مادية للشعب الجزائرى ، نتيجة مشاركته للشعب الفرنسى ، أما راديو صوت الجزائر فقد تميز بما نادى به من أفكار وطنية ثورية وبما بشر به من حرية وكرامة الإنسان الجزائرى ، مستخدمًا أحداث التاريخ ، وهذا النموذج من إذاعات التحرير يجمع بين الظروف الخاصة التى مكنت الإذاعة من أن يكون لها تأثير أقوى مايكون على الشعب وبين الدعوة إلى التحرير بمحاربة المستعمر ، ونحن إذا أردنا أن ندخل فى تفاصيل الموقف الإذاعى فى الجزائر ابتداء من عام ١٩٥٦ وحتى الاستقلال يجب أن نلم بتاريخ إذاعة القاهرة ومراحل تطورها – خاصة صوت العرب – والواقع أن اهتمام مصر باستخدام الأصوات الجهورية التى تدعم الحملات الإذاعية قد واكب ظهور الوعى العربى الحقيقى وتثبيت ثقة العرب فى أنفسهم ، على أن ظهور صوت الجزائر الحر الذى أشرفت عليه جبهة التحرير الوطنى الجزائرى قد أكد ما كان يذاع من صوت العرب والبرامج الدولية من القاهرة ، بل دمج جميع هذه الإذاعات فى وحدة واحدة أصبحت محط ثقة الجزائر ، ولايعادل هذا النجاح الذى سجله صوت العرب غير نجاح الإذاعة السواحلية من القاهرة إلى شرق أفريقيا ، ولقد نشأت هذه الإذاعة فى عام ١٩٥٤ .. ولمدة نصف ساعة ثم زيدت إلى ثلاثة أرباع الساعة ثم ضربت فى عدوان ١٩٥٦ وبعد أن عادت محطات الإرسال إلى العمل عاد البرنامج السواحلى ، ثم بدأت مصر تذيع بالتيجرينية لأريتريا والعربية لشرق أفريقيا ومع تطور أجهزة الإرسال زيد البرنامج السواحلى إلى ساعة ونصف الساعة ثم إلى ساعتين ، وكان البرنامج السواحلى منذ نشأته يحاول أن يكون بمثابة صوت الشعب السواحلى فى تنزانيا وزنزبار .

وبعد أن وقع العدوان الثلاثى بدأ يهاجم بشدة الاستعمار البريطانى كما ظهرت إذاعة صوت أفريقيا الحرة ، ولم تكن محطة دعاية سوداء ، فقد عرف أن مقرها القاهرة ولكن بصفة غير رسمية إلى أن أعلن ذلك الرئيس جمال عبد الناصر بصورة ضمنية ، وكانت هذه المحطة تعمل لمدة أربعين دقيقة وتهدف إلى تحرير شرق أفريقيا بأكمله ، وزيادة الوعى القومى بين

الأفريقيين ، وكان من الطبيعى أن يتمتع هذا البرنامج بحرية أكثر مما يتمتع به البرنامج العادى ، وكانت تصل أخباره إلى جوموكنياتا فى سجنه ، كما كان يفضح خطط البريطانيين وينبه الزعماء الأفريقيين إلى مايراد بهم فى المؤتمرات التى عقدت لحل الإشكال السياسى فى شرق أفريقيا ، مثل مؤتمر لانكستر بلندن ، والواقع أن صوت أفريقيا الحرة قد ساعد فى فضح التخطيط البريطانى الاستعمارى مؤكداً بذلك رسالة الإذاعة السواحلية من القاهرة ومحفزًا شعب شرق أفريقيا على الاستقلال ، وبعد أن تم استقلال دول شرق أفريقيا توقف البرنامج السواحلى (صوت أفريقيا الحرة)من القاهرة .

وهناك إذاعة أخرى يجب أن نشير إليها وهى إذاعة بيافرا ، وعلى الرغم من أنها كانت تمثل قضية خاسرة فقد نجحت فى إخفاء أو تأجيل ظهور الهزيمة العسكرية التى منيت بها قوات بيافرا أمام القوات النيجيرية ، وقد بدأت هذه الإذاعة ببعض أخبار درامية معلنة أن دولا خمسة فى سبيل اعترافها ببيافرا بعد إعلان انفصالها بيوم واحد كان هذا الخبر مكذوبًا من أساسه ، ولكنه ترك فى المستمعين المحليين أثرًا قويًا وبرغم أن إذاعة إينجو Enugu اضطرت إلى أن تلتزم طريق المراوغة بعد سقوط العاصمة الا أن تقوية صوت بيافرا قد تم بشكل أصبح معه يسمع فى غالبية أنحاء نيجيريا بل خارج نيجيريا ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى المخابرات البريطانية ، كما يرجع تأثيره المعنوى إلى المدعو فريد مريك فورسايث الذى أشرف على البرنامج واستحدث بعض مواد به مثل يوم الثعلب The Day of The Jakal وملف أوديسا Odessa File ولكنه لم يكن المسئول الوحيد عن نجاح إذاعة بيافرا ، إذ يرجع نجاح هذه الإذاعة إلى قوة الشخصيات التى كانت تتحدث منها خاصة (أوكن كن دن Oken Kon Den)الذى كان يعمل موظفًا فى إذاعة نيجيريا الاتحادية ، وساعده على هذا النجاح لغته الجميلة وصوته العميق إلى جانب الكولونيل أوجبيوى Ojubues قائد الثورة .

وكانت مهمة راديو بيافرا الذى كان يذيع بالإنجليزية وبثلاث لغات محلية رفع الروح المعنوية الداخلية مع نشر معلومات وأخبار غير حقيقية،ومن ذلك استخدام راديو بيافرا الأساليب التى استخدمتها الإذاعات الحليفة والنازية فى الحرب العالمية الماضية ، ولكن فى شىء من العمق ، فاهتمت إذاعة بيافرا أيضًا بناحية ثالثة لم تهتم بها الإذاعات السرية الأخرى ، إذ اعتمدت على العلاقات العامة اعتمادًا كبيرًا ولاسيما على وليم برهاردWilliam Baruhard وشركة مارك برس Markpress وهى وكالة للإعلانات معروفة بنشاطها الخاص ، وهكذا

أصبحت الإذاعة من بيافرا جزءًا لايتجزأ من الحملات الإعلامية العالمية ، وكانت الإذاعات الدولية التابعة لبيافرا تهدف إلى تسجيل مانقوله لاجوس وغيرها ، وكانت رسالتها أن تتمشى بقدر الإمكان مع مانقوله الإذاعات الأخرى أو ماتنشره الصحف من مقالات افتتاحية ومايعقد من مؤتمرات صحفية ، ومايرسل للمسئولين بطريق غير رسمى عن طريق شركة مارك برس كل ذلك بدون المساس بوظيفتها الأولى المتمثلة فى رفع الروح المعنوية بالداخل ، وإعطاء أعداء بيافرا أنباء غير صحيحة ، وليس هناك من شك فى أن إذاعة بيافرا بهذه الطريقة التى سلكتها قد أضافت بعدًا جديدًا إلى وظيفة الإذاعات السرية ، فلم تكن مجرد سلاح فى الحرب النفسية فقط ، بل غدت رمزًا للوطنية ، وعندما كانت القوات الاتحادية تغير على أى مكان وتحتله كان الاهتمام الأول لقوات بيافرا هو نقل محطة الإذاعة إلى مكان أمين ، وفى هذا الصدد نشير إلى أن هذا التكتيك هو صورة طبق الأصل من تكتيك الجزائريين .

والنقطة الرئيسية التى تؤخذ على راديو بيافرا أنه بالغ فى دعايته حتى أصبح هدفًا سهلا لاتهامه بالكذب والتضليل ،ولاشك أن اتهام أية إذاعة بالكذب تحط من سمعتها فى المدى الطويل ، فالكذب عمره قصير ، ومهما يكن من أمر فقد أثبت القائمون على إذاعة بيافرا أنهم أذكياء فى استخدامهم الإذاعة كسلاح سياسى وعسكرى واسع المدى ، بدون أن يأملوا أن يحققوا شيئًا من ورائه .

وبرغم إخفاق الإذاعة الاتحادية فى التغلب على روح العداء التى كان يبديها اخترال جاعون نحو الدعاية وماتميزت به وزارة الإعلام فى لاجوس من جمود وبطء فإننا لانتكر أن النتائج المادية للحرب هى التى تتكلم ، وأن الدعاية لاصوت لها فى نهاية المعركة واستخدام الإذاعة يكون أقوى مايمكن إذا ما دافعت عن قضية معلومة محددة ، خاصة إذا كانت هذه القضية عادلة ويعترف بها الناس والعالم ، وفى هذه الحالة بالذات نجد أن المحطات السرية تتفوق على المحطات الرسمية التى لاتتوقف عن الإذاعة سواء فى الأوقات الطيبة أو السيئة ، والتى لابد أن تدافع عن سياسة الحكومة سواء أكانت على صواب أم على خطأ ، ولكن المحطات السرية قد تتصنع الغبط والجهل إذا لم تأت النتائج وفق ماتشاء ، مثال ذلك الإذاعة السرية التى كانت تديرها وكالة الاستعلامات الأمريكية ضد كوبا ، فمن المؤكد أن هذه المحطة قامت بتغطية عملية خليج الخنازير ولكنها تصنعت الغباطة والجهل بعد فشل العملية مثلا مزريًا .

وقد اضطرت محطة الباسك السرية إلى الإشادة بمجموعة متنوعة من أسباب الفشل والنجاح ، على أنها ساهمت دون شك فى رفع معنوية الأقلية المحاصرة ، وكانت التعليمات والبلاغات العسكرية عن طريق محطة أوزكادى Ouzkade من جوزى ماريا Jose Maria De Leizaola وكان على هذه المحطة أن تصل إلى فنزويلا من كاركاس وحتى تعمل بحالة أفضل حاول الباسك الأسبان تقليد زملائهم باستخدام محطات الإرسال المحلية لبعض الوقت لإعادة إرسال إذاعتهم .

وكانت محطة راديو أوزكادى Ouzkadi تتحدث باسم الأقلية المضطهدة ، وكانت تنادى بمبدأ الحرية ، أى كانت لها وظيفة إعلامية معينة . وهناك أيضا حالة أبى . س ناثان Abi S. Nathan الذى استأجر سفينة أسماها سفينة السلام ، وهذا الرجل من أغنياء تجار اليهود الأمريكان ، وأراد على حد دعايته إحلال السلام فى الشرق الأوسط عن طريق استخدام محطة إرسال أقامها فى سفينته فى توجيه رسائل إلى العرب واليهود فى شرق البحر المتوسط ، وقام فعلا بتجربة لهذه المحطة فى مايو ١٩٧٣ وبعد محاولات بدأت محطته فى الإذاعة ، وظهر أنها كانت نفس المحطة الأمريكية المركبة على السفينة كورير Courier التى كانت تنقل إذاعات صوت أمريكا فى عام ١٩٤٥ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، والتى راحت تعبر المحيط الأطلسى ثم قناة بنما متجهة نحو اليابان . . ولكن اليابان قد سلمت فبقيت السفينة هناك حتى ظهرت محاولة هذا اليهودى الأمريكى ، وعلى كل فقد عادت بعد فشلها إلى شواطئ أمريكا إثر قيام حرب أكتوبر وهزيمة إسرائيل .

وهناك مشكلة تواجه المحطات السرية الصغيرة هى أنها لاتستطيع أن تجد الاعتمادات المالية الكافية ، ناهيك بالمذيعين الوطنيين المدربين ، وهذا على عكس المحطات السرية التى تشرف عليها الحكومة مثل محطة ديلمير Delmier فقد كانت الحكومة البريطانية تمولها بالمال ، كما كانت تجند لها الوطنيين المدربين ، ومن ثم لا يمكن هذه المحطات الصغيرة التى انتشرت فى جميع أنحاء العالم أن يكون لها نفس التأثير الذى كان لمحطة ديلمر أو للمحطات السرية الأخرى التى عملت بتأييد من الحكومات الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية . ذلك إذا ما استثنينا الظروف التى عملت بها إذاعة الجزائر ، وحتى هذه فكانت تجد المساعدات المالية من مصر وغيرها من الدول العربية .

ويبدو أن المحطات السرية التى ظهرت فى فيتنام وتلك التى ظهرت فى الشرق الأوسط بين

العرب واليهود قد أدت واجبها من ناحية استخدام الكلمة المنطوقة ، فمن ناحية الشرق الأوسط كانت حرب أكتوبر قصيرة الأمد ولم يكن من السهل إطلاقًا خلق طابور خامس فى الدول العربية المحاربة ، ولكن كان باستطاعة المحطات السرية والعلنية المصرية أن تكتسب العرب المقيمين فى إسرائيل إلى جانبها ، وبالفعل كان لها ذلك ، وهذا بعكس ما حدث فى فيتنام والهند الصينية ، إذ حاولت المخابرات الأمريكية عن طريق المحطات التابعة لها أن تخلق انقساماً بين الوطنيين ، ولكن لم تنجح وخاصة فى المجالين العسكرى والسياسى ، وكانت النتيجة وبالاً على الأمريكيين ، وبالمثل يمكن القول إن محاولة بريطانيا التأثير فى الرأى العام العربى عام ١٩٥٦ عندما هاجمت قوتها مع قوات فرنسا وإسرائيل مصر ، والواقع أن المحطة البريطانية التى كانت يديرها العميد بيرناد فيرجسون فى قبرص كان ضررها أكثر من نفعها ، وكانت تعرف باسم صوت بريطانيا ، فمن ناحية نجد أن هذه المحطة التى استولت عليها الحكومة البريطانية فى الثلاثين من أكتوبر هى نفس محطة الشرق الأدنى ، أى أنها لم تكن محطة سرية وثانياً نجد أن جميع الموظفين العرب الذين كانوا يعملون فيها قد فضلوا الاستقالة على أن يوجهوا دعايتهم ضد مصر ، ولقد عاد فيرجسوف إلى إنجلترا واشتغل باللاهوت مكفرًا عن سيئاته مشيرًا إلى أنه لم يكن يتوقع أن تكون المحطة التى أوفد لإدارتها مثل محطة الشرق الأدنى .

وتعين على أحد الموظفين الذين أوفدتهم الحكومة البريطانية إلى قبرص لمساعدة فيرجسون ، وكان من رجال الإذاعة البريطانية أن يقوم بتوظيف عدد من العاملين الجدد ليقدموا موادً إذاعية مدتها عشر ساعات يومية ، فى حين أن الإذاعة البريطانية لم تكن تقدم أكثر من خمس ساعات يوسيًا فى إذاعاتها العربية . ثم اكتشفت الحكومة البريطانية بعد ذلك أن نفس محطة الإرسال التى استولت عليها فى قبرص كانت تستخدم فى نقل صوت بريطانيا إلى أوربا ، والإذاعة البريطانية العربية إلى الدول العربية ، وبالتالى أخذت شعوب الشرق الأوسط تنظر إلى هذه الإذاعة كمحطة معادية ، لأنها كانت تصمم على تأكيد معارضتها لتأميم قناة السويس ، أى أنها كانت مناهضة للسياسة الوطنية العربية . وكان من نتيجة استيلاء بريطانيا على محطة الشرق الأدنى أن الإذاعة البريطانية لم تجد محطة لتنقل البرنامج العربى على الموجة المتوسطة واضطرت إلى الاكتفاء بالموجات القصيرة . ومن العجيب حقًا وعلى الرغم من فشل سياسة الحكومة البريطانية أن استمر صوت بريطانيا فى العمل حتى مارس من السنة التالية ، برغم أن الأحزاب البريطانية خاصة حزب العمال هبت إلى نقد سياسة الحكومة وأشارت إلى أن

استيلاء القوات العسكرية على محطة النقل فى قبرص قد أدى إلى الحط من ثقة المستمع فى الإذاعة البريطانية ، وكان هذا النقد حقيقياً ، ولكن لحسن حظ الإذاعة البريطانية أن عدداً كبيراً من الموظفين العرب بها كانوا قد طالبوا بأن تعرض هذه الإذاعة وجهتى النظر المؤيدة والمعارضة ، وبقدر يتناسب مع قوة كل منهما فى المجتمع ، ولما استجابت الإذاعة البريطانية لهذا الرأى لم يتقدموا باستقالتهم ، ولو كانوا قد فعلوا لخسرت الإذاعة البريطانية كل سمعتها بين الدول العربية .

وتظهر لنا الأحداث أن المحطات السرية على اختلاف أنواعها تعتمد من أجل نجاحها على الاتجاه السياسى للمواد التى تذيعها ، فإن كانت المحطة السرية تؤيد عملا إيجابياً يحبذه الشعب المستهدف فإنها تصبح فى هذه الحالة وبفضل تجاوب الشعب معها – سلاحاً قوياً ، أما إذا ما استخدمت المحطة السرية كبديل عن القتال فإنها تصبح عديمة الجدوى ، ولا يمكن تحت أى ظرف من الظروف أن تكون بديلا عن وجود عدد من المؤيدين الملتزمين أو العملاء أو عن المساعدات التى تأتى من الخارج ، أو عن التدخل أو عن إرسال الأسلحة أو ما يشبه ذلك من أسباب القوة ، ومن ناحية عامة نستطيع أن نسأل هل سار الاتجاه نحو استخدام المحطات السرية فى أواخر السبعينيات والثمانينات أكثر أو أقل مما كان عليه فى الحرب الباردة ، أو فى المواقف العسكرية ، أو فى الاضطرابات التى نتجت عن هذه الحروب أو تحولت إليها ؟ من رأينا أن الدعاية السوداء والرمادية لها دورها فى عمليات الاستغلال الاقتصادى أو مايسمى بالاستعمار الجديد ، أو فى الحالات التى تكون فيها الدولة حديثة الاستقلال ، خاصة بعد أن تحرر القسم الأكبر من أفريقيا وآسيا ، وتمكنت مستعمرات عديدة من نيل استقلالها .

ومن ثم يكون الجواب على تساؤلنا أن المحطات السرية سوف تستخدم أكثر وأكثر بالنسبة للدول شبه المستقلة أو حديثة الاستقلال ، وفى الحالات التى يحاول فيها الاستعمار الاقتصادى أو الاستعمار الجديد المحافظة على مكانة الدول الاستعمارية السابقة ، وقد لاتسمح الظروف فى بعض الأحوال بإقامة محطات معارضة للمحطات الوطنية فمثلا حدث فى شيلى عندما وقع الانقلاب العسكرى أن اهتم الزعماء الجدد أول مااهتموا بإقامة جهاز للإذاعات الدولية للرد على شتائم الشيوعيين وهذا يعتبر فى حد ذاته تحدياً سافراً للعناصر المعارضة فى ألا تنادى فى معارضتها للدعاية الرسمية ، وكانت رقابة العسكريين فى شيلى قوية بشكل لم يسمح بوجود محطة سرية . وعلى النقيض تماماً نجد الدعاية الإذاعية عندما تحدث اشتباكات علنية تكون على

أشدها ، وبالنسبة للشرق الأوسط فسوف يستمر لبعض الوقت ميدانًا للدعاية السوداء والرمادية والبيضاء فمن ناحية نجد أن الأكراد يستخدمون الإذاعة فى كفاحهم من أجل الحرية ، ذلك إلى جانب المعارك الكلامية بين العرب وإسرائيل ، وبين بعض الدول العربية . خاصة بين مصر ودول الرفض ، وفى الهند الصينية بدأت الأطراف المتنازعة تلجأ هى أيضًا إلى الدعاية ، وفى أفريقيا سيأتى اليوم الذى تقوى فيه هيئات التحرير وتسيطر على جماعات من المحاربين الأشداء ، وبالتالى سوف نجد أن ميدان الدعاية أقوى مايكون لأنه سيعتمد على ركائز جديدة تدعمه ، وفى الدول الاتحادية التى تتكون من شعوب مختلفة يحتمل أن تنشأ ألوان من الكفاح عن طريق الدعاية ، فمثلا قد يفكر شعب أو آخر فى تحويل رغبته فى الاستقلال إلى حقائق ، ومن ثم قد يستخدم الإذاعة فى كفاحه إذا ماوصلت حملته إلى المرحلة التى يكون فيها استخدام الاذاعة عملا منتجًا .

وليس هناك فى الوقت الحاضر احتمال وجود مواجهة بين الإذاعات السرية على نفس النطاق الذى كانت عليه فى الحرب العالمية الثانية ، وليس معنى ذلك أن من الصعب أن توجد ظروف تحتم استخدام الإذاعة كسلاح من ضمن الأسلحة العسكرية أو السياسية وقد أشارت النيويورك تايمز إلى أن مايحتاج إليه المرء فى الوقت الحاضر من أجل إقامة حكومة جديدة هو الاستيلاء على محطة الإذاعة أو إقامة محطة إذاعة مع إصدار بيان بقيام عهد جديد ، وقد يكون هذا القول صحيحًا بالنسبة لبعض البلاد مثل اليمن فى عام ١٩٦٢ ، ولكنه ليس بصحيح فى الوقت الحاضر ، وطالماكانت أشكال الصراع متشابهة لما هو جارٍ فى الشرق الأوسط وجنوب أفريقيا ، أوكما كان جاريًا فى الهند الصينية فإن دور الإذاعات السرية سيبقى كما هو أو يزداد أهمية ، إذ إن الإذاعات السوداء والرمادية ، وإذاعات هيئات التحرير ماهى فى الواقع إلا أسلحة تكتيكية للوصول بالبلاد إلى الحرية أو التحرر ، وليس من المحتمل أن تقوم فى أى بلد من البلاد ثورة أو يحدث بها انقلاب أو عملية تحرير ، بل ليس من المحتمل أن تقوم عملية اضطهاد أو حركة رجعية فتفرض سيادة فئة على أخرى بدون أن تكون الإذاعة سلاحها الرئيسى .

الفصل الثانى

الإذاعات الدينية

إذا تصفحنا مرجعاً فى الحرب النفسية نجده يشير إلى الأصل الدينى لكلمة دعاية ، وهى الكلمة التى أصبح مدلولها الآن منفرًا مزعجاً . والواقع أن الدعاية الدينية كانت تضفى نوعاً من الاحترام والتبجيل على سلوك المبشرين فى أيام البابا جريجورى خاصة على رجال بعثاته التبشيرية فيما وراء البحار . وحتى اليوم نجد الكنيسة الرومانية الكاثولكية تصر إصراراً يبلغ حد التعنت على أساليب الدعاية القديمة فى التبشير بالمذهب الرومانى الكاثوليكى برغم أن الكلية الكاردينالية تملك الآن أساليب ووسائل متنوعة لم تكن موجودة فى القرن السابع عشر أهمها راديو الفاتيكان .

ولقد أدركت الكنيسة المسيحية إمكانيات الإذاعة ومدى انتشارها الدولى بعد أن كان هناك احتمال بعزل مقر الكاثوليكية « الفاتيكان » عن شعبها فى الثلاثينات عندما أخذ موسيلينى يعارض نفوذها المحلى فى إيطاليا ونفوذها الدولى على مدى اتساع العالم ، ولقد استخدمت الفاتيكان الإذاعة كسلاح لتحقيق السياسة الكنسية بالتبشير ، أو الدعاية للمذهب الكاثوليكى ، ولقد بدأت الكنيسة فى روما أول إذاعة لها فى عام ١٩٣١ عندما قدم ماركونى البابا بولس الحادى عشر إلى ميكروفون الفاتيكان ، ومن هذا التاريخ أصبحت الإذاعة خدمة هامة للغاية بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية ، ويقدر أحد القساوسة عدد الذين يستمعون إلى إذاعة الفاتيكان بنحو تسعة ملايين شخص ، وإن كانت الكنيسة ذاتها لا تريد أن تفصح عن عدد مستمعيها . ومما تجدر الإشارة إليه أن الآباء الجزويت هم الذين تولوا تشغيل المحطة منذ نشأتها حتى الآن ، ويبلغ عددهم فى الوقت الراهن ٢٨ كاهناً يعملون بها طوال الوقت ويشرفون على لغاتها المتعددة وخدماتها الإقليمية ، ولقد وصلت المحطة إلى ذروتها فى عام

١٩٦٤ عندما أخذت تذيع باثنتين وثلاثين لغة ، وإن كانت الخدمة اللغوية فى حد ذاتها لا تزيد على ربع الساعة يوميًا ، وكانت تعمل جميعها على جهاز واحد للإرسال ومن ثم نستطيع أن نقول إن ساعات الإرسال الأسبوعية لمحطة الفاتيكان تصل إلى نحو مائة ساعة ، وهذا رقم منخفض من الناحية الدولية ، فالهولنديون مثلا يذيعون نحو ٤٠٠ ساعة فى الأسبوع ، والإيطاليون ضعف ذلك العدد ، وعلى كل فإن عدد ساعات الإرسال من راديو الفاتيكان قد تقل قليلا عن إذاعة المجر أو تزيد قليلا على إذاعة يوغسلافيا .

ويعوض راديو الفاتيكان هذا العجز فى ساعات الإرسال باعتقاد كهته بأن طبيعة الرسالة وإيمان المستمعين يرجحان على النقص فى ساعات الإرسال ، ومن أهم المواد الإذاعية الأخبار الدينية والقدّاسات ، ولكن حدث تغيير فى سياسة الفاتيكان منذ عام ١٩٥٧ ، فأصبحت الأخبار متوازنة ، بمعنى أنها جمعت بين الأخبار الدنيوية والدينية ، كما جمعت الموسيقى بين أحدث الألحان وأقدم الألحان الدينية . والفاتيكان يستخدم الأخبار والموسيقى كطعم لجلب المستمعين إليه بسبب عدم إقبالهم على الإذاعات الدينية . ومن ناحية الكاثوليك أنفسهم الذين يعيشون فى أماكن بعيدة ليس بها كنائس ، يعتبر راديو الفاتيكان من أهم المصادر الدينية لهم ، كذلك تعتبره الفاتيكان نفسها خدمة هامة ويكفى أن نسوق فقرة من تقرير رسمى كتبه الكاهن المشرف على راديو الفاتيكان بمناسبة مرور ٤٠ سنة على إنشائه قال : « لا نستطيع اليوم أن نتصور كيف يستطيع الأب المقدس أن ينجز مهمته البابوية العالمية بدون راديو الفاتيكان ، فهذا الراديو يعمل على سد حاجات الشعب الكاثوليكى » .

وليست الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المذهب الوحيد فى المذاهب المسيحية التى تستخدم الإذاعة ، فأتباع لوثر بل جميع الطوائف والمذاهب المسيحية وهى كثيرة جدًّا تؤمن بالدعاية الدينية فى جميع الأوساط ، ونحن عندما نتحدث عن المذاهب المسيحية المتعددة إنما نعتمد على كتاب الاذاعات الدولية الصادر عام ١٩٨١ ، فقد أورد لنا أكثر من أربعين محطة دينية مسيحية لها مذاهب شتى ، منها سبع محطات تعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك راديو الأدفنتس Adventist والراديو العالمى ، ويمتلك الأخير محطات إرسال على البحر الكاريبى ، ثم هناك هيئة الإذاعة للشرق الأقصى وتعمل من مانيلا ، وهناك الإذاعة الإنجيلية العالمية ، وإذاعة مقدم الحق وصوت الإنذير الأمريكى المسيحى ، وهى جماعة تبشيرية مقرها ميامى ، وكانت وأجهزة إرسال صوت المسيحيين التابعين للوثر قوية وتعمل من أديس أبابا ،

وتذيع أنباء أو برامج خاصة استهواء للمستمعين ، وهناك هيئات أخرى فى أستراليا ، واليابان ، وكوريا ، وهونج كونج ، ولبنان ، وغيرها .

أضف إلى ذلك أن هناك جمعية دولية للإذاعات الدينية المسيحية متفرعة من المجلس العالمى للكنائس ، وتقوم بتدريب رجال الإذاعة ومقرها فى جنيف ، كما توجد فى مدينة فريبورج الهيئة الدولية الكاثوليكية للراديو والتليفزيون ، وهى هيئة تعمل على مساعدة وسائل الاتصال مع الكاثوليك ، وقد نشأت عام ١٩٢٧ ، وأخيراً هناك جماعة الإذاعيين المسيحيين الدولية ، المتفرعة من المؤتمر العالمى الأول الذى عقد فى عام ١٩٦٦ بشأن الإذاعة الدينية . . ويبلغ مجموع ساعات الإرسال الأسبوعية الكلية للإذاعات الدينية المسيحية أكثر من ألف ساعة ، وهذا الرقم يكاد يصل إلى مجموع ساعات الإرسال للمحطات السرية فى العالم ، ويلاحظ أن الإذاعات الدينية تعتمد اعتماداً كبيراً على التمويل الأمريكى ، ويعمل بعضها بالاتصال مع صوت أمريكا ، على أن المواطنين فى أمريكا قد اعتادوا على المساهمة فى نشر الرسالة الدينية المسيحية ، بل توجد فى الولايات المتحدة محطات إذاعية دينية محلية أنشأتها الكنائس والجماعات التبشيرية أو المتزمتون المسيحيون ، ذلك إلى جانب الأوقات التى تشتريها هذه الجماعات من المحطات القائمة .

ولولا هذا التأييد المالى الأمريكى لما نشأت محطة أوميجا Omega ، أو محطة الإخوة ، وهى محطة استخدمت كإذاعة سرية موجهة إلى روسيا تحت اسم إذاعة روسيا الحرة ، وراحت تذيع برامج دينية باللغات الروسية واللتوانية واللاتفية ، أى أن الأمريكان استخدموا الإذاعات الدينية كإذاعات سرية ، وهذا المبدأ شائع بين رجال الإذاعة فى الدول الغربية ، ومثال ذلك أن الإذاعة البريطانية كانت تستخدم الأب رودزيانكر Rodzianko الروسى فى استهواء الروس عن طريق الديانة المسيحية الأرثوذكسية .

وترد الدول التى لا تعتقد بالدين – وهى الدول الشيوعية – بطريقة تهاجم فيها الأديان وذلك لسببين :

الأول : أنها تعتقد أن المسيحية باعتبارها حافزاً للسلوك قد فقدت قيمتها ، وأن أية عملية للإسراع فى القضاء على النزعة الدينية قد تأتى بعكس المطلوب . .

الثانى : أن الوجودية أو اللادينية هى رسالة سلبية من المحتمل أن تساعد على تأكيد أى مذهب دينى تأكيداً إيجابيًا إذا ما هاجمته أو انتقدته .

ولقد استخدم الحلفاء والألمان فى الحرب العالمية الثانية الدين كسلاح من أسلحة الحرب النفسية ، فمن ناحية الألمان نجدهم يهتمون بالدعاية التواكلية المسالمة تحت اسم الحركة المسيحية السلمية ، ورد عليهم البريطانيون بإذاعة أسموها « المسيح هو الله » ، وكان من أهم المتحدثين فى هذه الإذاعة قسيس نمساوى من الكاثوليك الرومانيين ، وكان يتناول وحشية الحملات النازية ضد اليهود والعناصر غير المسيحية فى المبدأ النازى ، ويقول ديلمر Seftan-Delmer الذى أشرف على الإذاعات السرية فى إنجلترا إن الإذاعة الدينية البريطانية – « المسيح هو الله » – كانت إذاعة مباشرة وليست إذاعة سوداء ، لأنها لم تذع بدعاً أو إشاعات فيما عدا إشاعة واحدة هى أنها صادرة عن الفاتيكان .

والإذاعات الدينية ليست مقصورة على التبشير بالمسيحية وإن تكن الإذاعات المسيحية هى الغاية فهناك إذاعة دينية تصدر عن القاهرة تهتم بالتعليم الإسلامى ، « بالتبشير » هى إذاعة القرآن الكريم ، هذا ولما كان العرب يهتمون بالدين فإننا نرى أن جميع الإذاعات العالمية الموجهة إليهم تحاول استهواءهم عن طريق الدين باعتباره طعما يجذب المستمعين للبرامج السياسية ، ذلك فيما عدا الإذاعات الروسية التى تذيع بالعربية ولا يعنى ذلك أن الإذاعات الأجنبية تحترم الدين الإسلامى كعقيدة ولكنها تتخذه وسيلة .

وفى مارس ١٩٧٤ عرضت ليبيا أن تقيم محطة فى النيجر تكون مهمتها نشر الدين الإسلامى فى أفريقيا ، واختارت لها اسماً هو صوت الإسلام ، وللآن لم تظهر هذه المحطة التى كانت ترمى ليبيا من ورائها إلى تعزيز جهود الأفريقيين جنوب الصحراء لإحياء انتمائهم للدين الإسلامى .

ومن الناحية العلمية يجب أن نشير إلى أن جميع الدعايات الدينية عن طريق الإذاعة لا تستهوى غير اتباع الدين الذى تبشر به ومن ثم لا تصبح الإذاعة كوسيلة لنشر الهدى بين الناس ، فأفضل طريقة لنشر الإيمان هو طريق المجابهة الشخصية ، إذ تتم المناقشة بين الداعى إلى الدين والمدعو إلى اعتناقه .

والدعاية تكون أشد فاعلية إذا لم تكن مستندة إلى تحيز أو إجحاف شخصى ، بمعنى أن تكون قائمة على مصلحة جماعية مشتركة يسلم بها الشعب المستهدف ، ولهذا السبب لا تعتبر الإذاعة

الدينية عملا ناجحاً ، فالمجتمعات الحديثة بصفة عامة لا تهتم بالمسائل الدينية وليس كما كان الحال فى القرون الوسطى أو الأولى ، عندما كان الناس يتجادلون فى المسائل الدينية وكلهم رغبة فى الوصول إلى الحقيقة . أما فى يومنا هذا فلا يوجد غير أفراد منتشرين هنا وهناك يهتمون بهذه المسائل . . والحماس الذى نراه فى بعض الجهات لتأييد كنائس معينة أو معتقدات جديدة كما هو حادث فى أفريقيا وآسيا قد يكون مخالفاً للقاعدة العامة ، والواقع أن الإذاعة الدينية قد أتت فى وقت متأخر لتؤدى دوراً إيجابياً فى تنشيط المسيحية ، سواء فى غير المناطق الإسلامية أو فى المناطق الإسلامية كما سيأتى بيانه . . ونحن عندما نتكلم عن الإذاعة الدينية لا نشير فحسب إلى هذه البرامج الصغيرة التى تذاع محلياً وبصفة دورية فى جميع المحطات والخدمات – بل نعنى بدرجة أكبر الإذاعات التى تهيمن عليها بعثات تبشيرية دولية ، فالإذاعات الدينية هى إذاعات دولية ، بل هى إذاعات سياسية متنكرة فى ثوب دينى ، لا سيما إذا كان الدين الذى تبشر به له تاريخه فى تمكين الاستعمار أو فتح البلاد أمام المستعمر الخارجى ، كما حدث فى أفريقيا . ونحن لا نرغب هنا فى مقارنة البرامج الدينية المحدودة الوقت التى تذاع فى كل محطة مع البرامج الدينية من المحطات التبشيرية على الرغم من أن كليهما يعمل على استمالة المستمع ولكن يختلف النوع الأول عن النوع الثانى فى الأسلوب ، فالثانى يدعو إلى الهداية لدين ما ، فى حين يدعو الأول إلى نواحٍ دعائية مغلفة فى قوالب دينية وإذا كان الثانى يريد تحقيق غرض إعلامى تعليمى مباشر فإن الأول يحاول نشر أفكار مستوردة تنفع الدخلاء من الأجانب أكثر مما تنفع أبناء البلد الأصليين ومثال الأول : البرامج الدينية المذاعة فى أية خدمة من الخدمات الأهلية ، أما الثانى فيأخذ شكلين : الأول ، إذاعات صادرة من محطات أجنبية ترمى إلى استبقاء نفوذها كالإذاعة البريطانية أو صوت أمريكا ، والشكل الآخر ، هو إذاعة صوت الإنجيل التى سوف نتحدث عنها فيما بعد ، بعد استعراض الوضع الدينى الإذاعى فى أفريقيا باعتبارها ميدان النزاع الحالى بين أيدولوجيات ومذاهب شتى .

الإسلام والمسيحية فى أفريقيا :

يقدر عدد المسلمين بنحو ٣٣ ٪ ، والمسيحيين بـ ٢٨ ٪ ، وأصحاب الديانات الطبيعية الأفريقية بـ ٣٧٪ ، وأصحاب الديانات الأخرى المهاجرة بـ ٢٪ « انظر كتاب الإنسكلوبيديا البريطانية لعام ١٩٧٢ ص ٦١٣ » ونلاحظ أن الديانات الأصلية فى أفريقيا لا تحاول اكتساب

« الغير » لها عن طريق التبشير ، بعكس المسيحية التى تعمل بالتبشير المركّز عن طريق مختلف أجهزة الاتصال الجماهيرية . ومن العجيب حقًّا أن الطوائف المسيحية تهتم اهتماماً كبيراً بتحويل المسلمين عن إسلامهم ، بل تعتبر ذلك عملا يستحق جائزة كبرى أكثر من تحويل الوثنيين إلى المسيحية .

وكان الإسلام سابقاً للمسيحية فى أفريقيا ، وتمكن أول ما تمكن فى شمالها خلال القرن السابع الميلادى ، وعلى طول شواطئ البحر المتوسط ، ثم انتشر عن طرق التجارة نحو الجنوب ، وأينما كانت القوافل تسير عابرة الصحراء نحو الأنهر الكبيرة فى الغرب تجاه المحيط الأطلسى كان الإسلام ينتشر فى نفس الطريق كذلك انتشر مع مراكب وسفن التجارة مخترقاً البحر الأحمر إلى المحيط الهندى ليرسو على شواطئه ، وفى الوقت الحاضر نجد الإسلام هو الدين الغالب فى الدول المتاخمة للصحراء الكبرى إلى الجنوب متغلغلا فى نفس الوقت عبر القارة الأفريقية من موريتانيا فى الغرب إلى الجنوب عبر مالى والنيجر وتشاد حتى السودان فى الشرق ، كذلك نجده متمكناً على السواحل الشرقية للقارة حتى موزمبيق فى الجنوب وحتى ساحل العاج على الساحل الغربى .

ولا يزال الإسلام ينتشر حتى هذه الأوقات تلقائيًّا وليس عن طريق بعثات تبشيرية من خارج القارة ، فالذين يدعون إلى الإسلام هم أبناء أفريقيا سواء من البيض أو الزنوج . ويرجع السبب فى انتشار الإسلام إلى أمرين : الأول – قدرة الداعين له على الحياة والامتزاج مع أهل البلاد الأصليين . والثانى : مواءمة الإسلام نسبيًّا للتقاليد والعادات الإفريقية المتوارثة والتى لا يحيد عنها الأفريقيون ، وإذا ما قورن الإسلام بالمسيحية نجده أبعد ما يكون عن هدم الثقافات التقليدية فى البلاد التى يدخلها . كما أنه أكثر تسامحاً خاصة بالنسبة للعادات والتقاليد الأساسية التى قد يجدها فى البلاد . ويقول أحد الكتاب الأجانب وهو ج . م لويس J.M.Lewis فى كتابه الإسلام فى أفريقيا الاستوائية عام ١٩٦٦ . « لم تكن هناك صعوبة فى وجود الدعاة أو تدريبهم من بين المدرسين المحليين لينشروا الإسلام ، فهم ليسوا فى حاجة إلى تعلم تاريخ أو تقاليد جديدة ، ولا يدينون بتقاليد وعادات وسلوكيات غريبة عن الأفريقيين مثل الأوربيين الوافدين من الخارج ، أما المبشرون المسيحيون فقد أخذ عليهم الأفريقيون أنهم أكثر تظاهراً بالدين من اعتناقه والإيمان به ، وأنهم يتميزون بالقسوة والقلب البليد المتحجر ، ولا غرو ، فعادتهم وتفكيرهم كأوربيين تضفى عليهم هاتين الصفتين » ولقد أورد لنا مويلى

Mobley في دراسة عن صورة المبشرين فى غانا ، كيف أن الأفريقيين أنفسهم قابلوا المبشرين فى إحدى المناطق التى هبطوا بها وهى دراسة شيقة قام بها فى عام ١٩٧٠ ، ويقول فيها : « إن الأفريقيين لاحظوا الغيرة والكراهية بين الطوائف المسيحية المتنافسة وكيف أنها وصلت إلى حد المرارة فى بعض الأحيان ، وأن العداوة بينها قد اكتست بغلالة من التعاليم الدينية المسكونية » .

بدأت عملية التبشير المسيحى فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر وكانت متصلة ومزامنة لعملية الاستعمار الأوربى للقارة ، ذلك إذا ما غضضنا النظر عن البعثات السياحية البرتغالية الأولى ومحاولة الجيزويت المتكررة فى تحويل الأحباش عن ديانتهم المسيحية الأرثوذكية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكانت البعثات المسيحية التبشيرية تتقدم عملية الاكتشاف الأوربية الداخلية للقارة ، أوكانت تتبعها عن كثب أو تقتفى أثرها ، ومن المضحك المبكى أن المكتشفين الأوربيين للقارة الأفريقية كانوا يعتمدون على العرب أو على مرشدين من الأعراب ، بل كان التراجمة والتجار والعساكر والزعماء والخدم الذين يستخدمون هم من العرب أو المستعربين ، ومع ذلك نجد أن هؤلاء العرب والمستعربين فى إرشادهم الأوربيين إلى داخل القارة قد حملوا معهم فى نفس الوقت القرآن والديانة الإسلامية ، وبالتالى نستطيع أن نقول إن الإسلام أخذ فى الانتشار تلقائياً دون الحاجة إلى بعثات تبشيرية كمنظمات أو هيئات تجمع المال من أراض ودول بعيدة لتؤكد عملية التبشير فى أفريقيا السوداء ، على أن قيام القومية العربية وانتشار الإذاعة قد أتى بتغيير جديد ، فقد أخذت مصر فى أوائل عام ١٩٦٠ تقدم على موجاتها القوية نوعاً إيجابياً ومؤثرا من الدعوة الإسلامية الدينية والدعاية السياسية إلى أفريقيا الاستوائية ، وكان من أهم السمات الرئيسية التى التزمت بها الإذاعة المصرية أنها كانت دائما تقرن البعثات التبشيرية المسيحية بالاستعمار الغربى ويقول جون كولى John Cooley فى كتابه « بعل والمسيح ومحمد » الصادر عام ١٩٦٧ : « إن الإسلام خاصة فى أفريقيا قد أبرز ترابطاً بين المسيحية والاستعمار الغربى وإن الإسلام تمكن عن طريق فضح هذا الترابط من تحويل ٩ ملايين إفريقى سنوياً إلى الإسلام ، ويبدو أن الصلة التى كانت تجمع بعض تجار العرب مع تجار الرقيق من الأفريقين برغم محاولة الأوربيين تركيز الضوء الشديد عليها لم تقف عائقاً فى سبيل تحول هؤلاء الناس إلى الإسلام » وهذه الصلة التى تحدث عنها Cooley غير قائمة أصلاً كما أن عدد الرقيق الذى تعامل فيه بعض التجار العرب لم

يتجاوز بضعة آلاف . أضف إلى ذلك أن الرقيق من الأفريقيين بعد فترة قصيرة من أسرهم كانوا يعتقون ويعيشون فى منازل أصحابهم السابقين ويتزوجون منهم ، فى حين أظهرت الإذاعات المصرية الصلة البشعة بين الأوربيين وتجار الرقيق فى غرب أفريقيا ، وكيف كانت تجارة قائمة على القسوة والوحشية والخسة مع الأمريكيين .

أما عن قول كولى من أن هناك ٩ ملايين نسمة يتحولون إلى الإسلام سنوياً فهو مبالغ فيه ، إذ يبدو أنه يحاول استفزاز المسيحية ضد الإسلام بالمبالغة فى عدد الذين يعتنقون دين الله الحنيف ، خاصة أنه ليس هناك من الإحصائيات ما يعزز كلامه ، وإن يكن من الأمور الثابتة والحقائق التى تقبلها الغرب فى الفترة ما بين ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ أن الإسلام – وبدون تبشير – انتصر فى أفريقيا . وقد رد المبشرون على هذا النصر بإدخال الإذاعة كوسيلة اتصال جماهيرية تعمل على الحد من انتشار الإسلام .. والواقع أن الإذاعة كأسلوب ووسيلة قد شجعت قيام البعثات التبشيرية بهجوم مضاد ، ومهما يكن من أمر لا نستطيع أن نبالغ كثيراً فى معزى استخدام الإذاعة كعنصر أساسى فى الجهود المسيحية لتحويل المسلمين عن دياناتهم كما يفعل المبشرون الذين نادوا باستخدام الإذاعة كوسيلة للتبشير بأن القبائل الإسلامية فى أفريقيا هى عبارة عن مجتمعات مغلقة ، لا سيما من ناحية تحجب المرأة وعدم مشاركتها فى الحياة العامة . . ويقولون إن هذه المجتمعات المغلقة كانت حجر عثرة فى سبيل التبشير المسيحى ، ويروى عن أحد القساوسة المسيحيين – وكان يعمل فى مجتمع غالبيته من المسلمين – أنهم كانوا يفرحون كل الفرح إذا مات أحد المسيحيين ، وكان يفسر ذلك بأن المسلمين إذا مات مسيحى كانوا يأتون للعزاء فى الكنيسة ، فيستطيع عندئذ أن يبشرهم بالدين المسيحى ويدافع الذين استخدموا الإذاعة فى التبشير بأن راديو صوت الإنجيل يستطيع بدون تدخل البوليس أو استئذان الحكومة أن يبشر بالمسيحية هؤلاء الذين يعيشون وراء أبواب مغلقة وستر مسدولة « انظر تقرير الاتحاد العالمى اللوثرى ص ٩١) أوكما قالت بعثة تبشيرية أخرى «كل جهاز استقبال ترانزستور قد يصبح مبشراً بالمسيح . . لقد أصبحت الإذاعة المسيحية أمراً جديداً فى بلاد الإسلام ، وأهم ما تتميز به أنها إذاعة خاصة ، والفرد يستطيع أن يستمع إلى الراديو دون خوف أو رهبة من الناس . انظر كتاب ريدوجرانت بعنوان : (صوت تحت كل شجرة) الصادر فى ١٩٦٨ ص ١٤٩ .

وليس من المحتمل أن تهتم الدول الإسلامية فى القريب العاجل بالنشاط المتزايد للإذاعات

التبشيرية المسيحية سواء الصادرة من أفريقيا أو إليها ، بحيث تعمل على إنشاء محطات مماثلة للتبشير بالدين الإسلامى ، ولكن قد يأتى التحدى نتيجة تغير فى مفهوم دور البعثة التبشيرية فى الدول الأفريقية المستقلة ، فرجل البعثة التبشيرية الذى اتخذ من عملية التبشير مهنة وحرفة يتكسب منها – كما كان الحال فى القرن التاسع عشر – سوف يستمر فى إقامته بمنزل صغير جميل فوق ربوة عالية تبعده عن حرّ أفريقيا ، وقد يكون مبشر القرن العشرين على نفس النمط فيقع هو أيضاً فى أخطاء يسجلها فى استديوهات الإذاعة ، سواء كانت فى أوربا أو أمريكا ، وهو ينظر إلى أفريقيا من بعيد . . ويقول أحد القاوسة الميثوديست فى زائير : إننا لسنا فى حاجة إلى مبشرين أوربيين ولكننا فى حاجة إلى إخوة يأتون إلينا ويعملون معنا ، ثم يضيف بأن التبشير لا يقوم بنفسه ، بل يأتى مع أعمال أخرى ، مثل الطب والتعليم والإذاعة ميدان جديد لا يخدم التبشير وحده بل يخدم مجالات عديدة من المعرفة ، وهذا الرأى أو هذا التطور تؤكده بقوة محطة إذاعة لوثر فى الحبشة التى كانت تهتم إلى جانب التبشير بتعليم الناس طرق الزراعة الحديثة . . وعلى ذكر محطة لوثر التبشيرية فى الحبشة نشير إلى أن محطات عديدة فى أفريقيا قد أفردت برامج خاصة للشئون الدينية ضمن برامجها التى تشرف عليها الحكومة ، وهذا الأسلوب متبع فى الإذاعات الإسلامية والمسيحية على حد سواء . . فى الأولى تفتتح الإذاعة بالقرآن الكريم ، كما تنقل صلاة الجمعة وخطبتها من أحد المساجد المعروفة ، وتحتفل بالأعياد الدينية ، كعيد الفطر وغيره ، وفى الدول التى تضم جاليات مسيحية ما بين شمال أفريقيا وخط الاستواء نجد إذاعاتها تقدم أيضاً البرامج والقداسات يوم الأحد وغيره من الأعياد الدينية .

وعندما نتعرض بالدراسة للإذاعات الدينية إنما نبغى من وراء ذلك التعرف على طريقة عملها ، وليس هناك إذاعات إسلامية تدعو إلى التبشير مثل الإذاعات المسيحية ، فإذاعة القرآن الكريم من القاهرة لا تعتبر بحال من الأحوال إذاعة تبشيرية ، لأنها تصدر باللغة العربية لمناطق إسلامية تتكلم العربية ، وبالتالى فهى لا تبشر بالإسلام للمسلمين . . فى حين أن الإذاعات المسيحية التبشيرية الصادرة من ليبيريا والفاتيكان وغيرها تستخدم لغات أجنبية غير لغات الدولة المصدرة للإذاعة ، وتستهدف أقواماً غير مسيحيين ، وفى طليعتهم الشعب الإسلامى فى أى مكان . ونحن عندما نبحث كيف تعمل الإذاعات المسيحية فى أفريقيا وتلك الموجهة إليها إنما نبغى شرح أمر واقعى ليكون محط دراسة أجيال مستقبلة ، خاصة أن أفريقيا تعتبر أولى القارات التى تهتم البعثات الدينية المسيحية بالتبشير فيها عن طريق محطات الإذاعة .

وحتى نتعرف كيف ينسقون بين الإذاعات الدينية الصادرة من أفريقيا وإليها ، أو الصادرة من خارج القارة إلى افريقيا ، يجب أن ندرس أولا أكبر هيئتين دينيتين فى العالم ، وهما هيئة الكاثوليك الرومان والاتحاد العالمى للاتصال ، ويمثل الهيئة الرومانية الكاثوليكية الاتحاد الدولى الكاثوليكى للإذاعة والتليفزيون ، ومقره سويسرا ، وأعضاؤه منتشرون فى ثلاثين دولة أفريقية ، أما الاتحاد العالمى للاتصالات المسيحية فقد تكون عام ١٩٦٨ عندما اجتمعت عدة هيئات تهتم بالإذاعة ووسائل الاتصال وكونت هذا الاتحاد ومقره فى لندن ، وهو اتحاد عام عضويته مفتوحة للأفراد والكنائس ووكالات الاتصال والعلاقات العامة والهيئات الدينية ، وهناك ثلاثون عضواً أفريقياً فى الاتحاد من اثنتى عشرة دولة إلى جانب عشرات الأعضاء الذين يمثلون هيئات مسيحية مثل المؤتمر الأفريقى العام للكنائس ومقره كينيا ، وهيئة لإذاعة النيجيرية فى لاجوس ، وهيئة إذاعة تليستار فى زائير ، وقد ساعد الاتحاد الدولى للاتصالات المسيحية أعضاءه بتقديم المشورة والخبراء فى الدعاية والفنيين الإذاعيين ، كما قام بإنشاء عدة مشاريع هامة للتبشير المسيحى فى أفريقيا .

ومن هذا نستطيع القول بأن الإذاعات المسيحية تصل الآن إلى المستمع الأفريقى عن طريق ثلاث وسائل ، أهمها وأكثرها شيوعاً هيئات الإذاعة الحكومية فى الدول الأفريقية ، والتى تقوم من تلقاء نفسها أو نتيجة مساعدات ومعونات مالية من الكنيسة بإذاعة مواد دينية وتبشيرية لمستمعيها المحليين . . وهناك مراكز إنتاج إذاعية تتبع هذه الهيئات المسيحية وتعتمد على محطات الإرسال الحكومية لإذاعة إنتاجها ، كذلك هناك عدد محدود من محطات الإذاعة الكاملة التى تعمل بالتبشير وحده ، وتشرف عليها الهيئات الدينية إشرافاً كلياً أو محطات دولية تخدم مجموعة متجاورة من الدول أو تخدم القارة نفسها .

البرامج الدينية فى الإذاعات الحكومية :

كان من الطبيعى فى أيام الاستعمار أن تقدم الإذاعات الحكومية التابعة للاستعمار الوقت اللازم للمبشرين الذين كانوا رأس حربة للاستعمار ، وفتحوا البلاد أمام القوات الأوربية أو نفوذها السياسى ، وحدث بعد الاستقلال أن ترك المستعمرون على رأس الإذاعات الحكومية عدداً من الموالين لهم ، والذين كانوا أكثر تعصباً ، كما كانوا من خريجى الإرسالات التبشيرية أو من أبنائها المدللين الذين أرسلتهم للخارج وفضلتهم على أبناء جلدتهم ، وكان من

الطبيعى أن يقدم لهؤلاء الموالين أضعاف الوقت الذى كان ممنوحاً للكنيسة قبل الاستقلال ، وهنا نتساءل : هل استخدمت الكنيسة كل هذا الوقت أفضل استخدام ؟ وما هى البرامج التى استخدمتها الكنائس لتأتى بأفضل النتائج .

ونحن إذا تعرضنا للدول التى تتكلم الإنجليزية فى أفريقيا نجد أن كل محطة فى المستعمرات السابقة أقامت قسماً دينياً داخلها ، يكون مسئولا عن البرامج الدينية ، ويعمل بالاتصال الوثيق مع الهيئات الدينية التبشيرية فى البلاد ، وتقوم الإذاعة النيجيرية مثلا بدفع مرتبات العاملين به سواء أكانوا من الأفريقيين أم المبشرين البيض ، والسياسة التى تتبعها إذاعة نيجيريا فى البرامج الدينية تسير على نسق سياسة الإذاعة البريطانية مثل برنامج الصباح « صلاة العائلة » وهو برنامج يتقبله المسيحيون على اختلاف مذاهبهم : من كاثوليك ، وانجليكيين ، وبابتيست ، وميثوديست ، وجيش خلاص ، أما إذاعة زامبيا فتتبع طريقة أخرى هى توظيف القساوسة فى الإدارة الدينية على أن تقوم البعثة التبشيرية التابعون لها بدفع مرتباتهم ، فى حين تقدم إذاعة زامبيا التسهيلات الإذاعية . . والخيار بين هاتين الطريقتين فى الإنتاج أمر بهم رجال الكنيسة ، فهم يجهدون من أجل فرض رقابتهم على البرامج دون أن يدفعوا عنها ثمناً سواء بالنسبة للطريقة النيجيرية أو الزامبية .

مراكز الإنتاج :

وتقوم تجربة زامبيا على فكرة وجود مركز إنتاج لا تتبع الإذاعة . وبالفعل يوجد هناك مركز لإنتاج المواد الدينية اللازمة لجميع وسائل الاتصال ، أنشأته الهيئة التبشيرية عام ١٩٧٠ بعد فترة تردد ، ويقوم المركز بالتنسيق بين الاستخدامات المختلفة لأجهزة الاتصال فى أعمال التبشير ، وفى عام ١٩٧٢ كان يضم المركز إلى جانب قسم الإذاعات الدينية القائم على أربعة من الموظفين قسماً لوسائل الإيضاح المرئية والسمعية ، يشرف عليه أحد المتطوعين ، وقسماً للدعاية به ثلاثة من الموظفين ، وقسماً للنشر به موظفان ، وهذا المركز — هو فى واقع الأمر عمل تجارى — ويحظى بتأييد الحكومة ، ويظهر لنا ذلك من الخطاب الذى أرسله وكيل الوزارة الدائم بشأن الإذاعات الدينية فى زامبيا ، وإليكم بعض مقتطفات منه : « كان من نتيجة زيادة التنمية بصفة عامة فى البلاد أنى وجدت الكنائس ضرورة ملحة إلى النهوض بنشاطها ، وزيادة اشتراكها واستخدامها لوسائل الاتصال الجماهيرى ، ومن الأدلة على ذلك أن هذه

الكنائس تعمل على تمرين وتدريب رجال الدعاية مع إنشاء هيئة الاتصال العامة براميا التى تعتبر وكالة التنسيق ومركزاً لإنتاج المواد التى ترسل لمختلف وسائل الاتصال الجماهيرية ، بل قامت الكنائس أخيراً بإصدار جرائدها الخاصة بها ، وبرامج الاتصال التى تقوم بها الكنيسة كغيرها من البرامج تضعها فى المجالات الاجتماعية الأخرى بزامبيا ، وهى برامج دينية وليست برامج رسمية ، ويجب أن تكمل الجهود المنسقة للكنائس فى مجال الاتصال الجماهيرية أعمال الوزارة فى إنتاج مواد مناسبة محلية لتستخدم فى الخدمات والوسائل الجماهيرية المختلفة » . . وفى ضوء ذلك نرى أن المشروع يتمشى مع خطة التنمية العامة للبلاد فى هذا المجال .

ونلاحظ على الخطاب أنه يصف نطاق العمل للكنائس بأنه يكمل عمل الحكومة فى الإذاعة ويتفق مع خطط الحكومة التى تشجع وتعاون بالمال هذه الكنائس ، والسبب فى ذلك معروف ، لأنها استمرار لوظيفتها السابقة عندما كانت البلاد تحت الاستعمار .

هيئة التلبستار :

ليس هناك شبيه لهيئة التلبستار التى هى فى الأصل مؤسسة كاثوليكية ، وقد تحولت هذه الهيئة إلى هيئة عامة مسكونية تعتمد على المجلس الكاثوليكى والمجلس البرتستانتى فى زائير، وقامت فى عام ١٩٧١ ، ١٩٧٢ بإنتاج أكثر من ألف جهاز استقبال إذاعى وعدة مئات من البرامج التليفزيونية لإذاعتها من محطة تليفزيون زائير ، ولم تكن هذه البرامج فى جملتها دينية ، وإن تكن قد قامت على مبادئ مسيحية ، وكانت تعالج شئون التعليم والإرشاد الصحى والزراعى ومشاكل الشباب ومساواة المرأة بالرجل فى حدود التعاليم المسيحية ، وقد وافقت حكومة زائير على موضوعات هيئة التلبستار ، وقامت الأخيرة بانتاجها بالاتفاق مع الإذاعة الحكومية ، ويتبع هيئة التلبستار قسم للإذاعة كان قد افتتح عام ١٩٦٣ فى مدينة لومومباش ، ثم أقام القسم له خمسة أفرع إقليمية فى عام ١٩٦٥ فى كل من ماباندا Mbandaka وكيسنجانى Kisangani ولولا بورج Lulabourg وبوكافو Bukavu وموبوجيماى Mbuji Mayi وكان كل استديو فى هذه القواعد الخمسة يقوم على خمسة أفراد ، منهم رجل أبيض للرئاسة والتوجيه ، أما الاستديو الرئيسى فكان به ٢١ شخصاً ، منهم اثنان من القساوسة يشرفان على عملية التدريب ، أما قسم التليفزيون فقد تكون عام ١٩٦٩ بكنشاسا ، وكان به تسعة وستون شخصاً ، منهم ١١ قسيساً أوربياً ، و١٥ أفريقياً من الموالين للبلجيك ، ثم أقاموا مركزاً آخر

للإنتاج فى كينشاسا عام ١٩٧٢ ، وفى نفس السنة وجدت حكومة كينشاسا أن الكنيسة تهيمن على الإذاعة والتليفزيون ، وحاولت أن ترفع يدها عنها ولو بعض الشىء خاصة بالنسبة للحياة الاجتماعية والوطنية ، ولكنها وجدت مقاومة من الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تشرف أيضا على نظام التعليم فى البلاد منذ أيام الاستعمار ، وبالتالى حولت هيئة التليستار نفسها من هيئة دينية إلى هيئة علمانية لا تبغى الربح ، للتمويه عن حقيقتها الأصلية ، بدون أن تخرج عن وظيفتها التى أنشئت من أجلها أصلا .

استديوهات الإنتاج :

كانت هناك محطة اسمها إذاعة صوت الإنجيل فى أديس أبابا وهى تتبع الاتحاد الدولى اللوثرى وقد استولى عليها الكوبيون وحولوها إلى محطة علمانية ، وتعتمد هذه المحطة فى غالبية إذاعاتها على مواد منتجة محليًا فى الاستديوهات القائمة فى المناطق المستهدفة ، وهذه الاستديوهات تقوم بتزويد المحطة ببرامج مسجلة على شرائط باللغات المحلية ، وهى تصلح بعد إعادة تحريرها للاستهلاك المحلى ، وهى تتبع هيئة Rvog ولها سبعة أستديوهات إقليمية فى أفريقيا ، منها خمسة استديوهات تشرف عليها الطائفة اللوثرية وتوجد فى : موشى Moshi بتنزانيا ، وجوس Jos بنيجيريا ، وانتسرابى Anturabi بملجاشى ، وأديس أبابا بالحبشة . واثنان بالكاميرون يشرف عليهما الاتحاد الدولى للاتصالات المسيحية ، ويوجدان بمدينتى نجواندیری Ngaoandere وياوندى Yoaunde وتقوم هذه الاستديوهات بإرسال إنتاجها على شرائط ممغنطة بالبريد الجوى إلى محطة روفوج بأديس أبابا التى كانت تقوم بإذاعة هذا الإنتاج إلى المناطق المستهدفة . وهذه الطريقة المعقدة ترمى إلى تحاشى الرقابة الحكومية أو الإشراف الحكومى فى مناطق إنتاج الشرائط ، كما أن نشاط الجماعات الدينية فى هذه المراكز محدود محليًا بالوقت الممنوح لها فى المحطات الحكومية المحلية .

وبعثة السودان الداخلية هى أكبر بعثة ايفانجلية تبشيرية فى أفريقيا من ناحية عدد المبشرين المتشرين فى الحزام السودانى ، ومركز هذه البعثة فى ليبيريا ، حيث توجد محطة E.L.W.A. التى افتتحت عام ١٩٥٤ قرب مونروفيا بأموال أمريكية ، وهى تستخدم نفس طريقة Rvog للحصول على البرامج المحلية ، ومحطة E.L.W.A. ومعناها : بالحب الأبدى تكسب أفريقيا ، تحصل على موادها من الحبشة ، وغينيا ، وساحل العاج ،

ونيجيريا ، وسيراليون ، وتنزانيا ، وزائير .

وهناك عشرات من مراكز الإنتاج الصغيرة فى جميع أنحاء أفريقيا لاسيما فى الدول التى تتكلم الفرنسية ، حيث تأخذ الكنائس ما يلزمها من وقت على موجات الإذاعات المحلية ، وبشرط أن تقوم بإعداد برامجها هى ، وطبعاً ترحب الكنائس بهذا الشرط لأنه يمنع تدخل الحكومة فيما يذاع .

المحطات التابعة للكنائس فى أفريقيا :

المحطات التى تتبع الكنائس لها تاريخ طويل فى أفريقيا ولا سيما الدول التى تتحدث الفرنسية ، حيث تتولى الكنيسة الكاثوليكية رسمياً مسئولية التعليم وإن ساعدتها قبل الاستقلال الحكومة الاستعمارية بالمعونات المالية ، على أن عدد هذه المحطات الإذاعية التى تعتمد على الكنيسة قد أخذ فى النقصان .

إذاعة كورداك :

هناك ثلاثة أنواع من المحطات الإذاعة التابعة للكنيسة . الأول محطات محلية من النوع الذى بحثناه . والثانى محطات دولية داخل أفريقيا والثالث محطات دولية خارجها . ومن النوع الأول محطة كورداك الموجودة فى بورندى وإن تكن لها فى نفس الوقت صفة دولية باعتبار أن إشعاعها يسقط على الدول المحيطة بها وهى محطة تبشيرية يؤيدها رجال المذهب البروتستانتى دولياً وتخصص ثلث وقتها تقريباً لبرامج ثقافية وتعليمية لها سمة دينية إلى جانب البرامج التبشيرية البحتة .

محطة إلوا :

أشرنا فيما مضى إلى محطتين تبشيريتين كبيرتين فى أفريقيا ، إحداهما Elwa وكان مقرها ليبيريا ، والثانية روفوج وكان مقرها الحبشة ، وكلتاهما تذيعان بلغات عدة ، وتعتمدان فى الحصول على موادهما على المكاتب الفرعية المنتشرة فى أفريقيا ، وتوجهان برامجها إلى جميع أنحاء أفريقيا ، بل إلى بعض الدول الإسلامية خارج أفريقيا ، وطريقة المحطة الأولى فى التبشير تختلف عن الثانية ، وبالمناسبة تعنى كلمة Elwa الحروف الأولى من العبارة الإنجيزية

Eternal Lone Winning Africa وهى محطة انفانجيلية أقامتها بعثة التبشير السودانية عام ١٩٥٤ قرب مونرافيا عاصمة ليبيريا ، ولها علاقة بوكالة الاستعلامات المركزية الأمريكية وتعينها بالمال ، كما تصرف عليها الهيئات الدينية الأمريكية ، وتحتل مائة فدان على الساحل الأطلسى قدمتها الحكومة الليبرية هدية من رئيسها السابق ولم تويمان ، وتقدم محطة إلوا أيضا خدمة محلية ، أى برنامجاً عامًّا لليبريا باللغة الإنجليزية وبعض اللغات المحلية ، كما تقدم إذاعات دولية نحو غرب أفريقيا ووسطها وشمالها وإلى الشرق الأوسط ، ويفهم من هذا التوجيه إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط أنها تهدف إلى تحويل المسلمين عن الإسلام ، ومع ذلك فليس هناك من هيئة بغرب أفريقيا تدرك حقيقة انتشار الإسلام فى السنوات الأخيرة أكثر من محطة إلوا ، التى اضطرت فى عام ١٩٦٨ إلى إقامة محطتين جديدتين للإرسال لتقوية ترددانها الموجهة للعالم الإسلامى .

وتذيع هذه المحطة التى تشرف عليها البعثة التبشيرية السودانية الأمريكية بحوالى خمسين لغة ، ومن ثم كانت اللغة تستغرق وقتاً قصيراً لا يزيد فى بعض الأحيان عن ١٥ دقيقة ، وتضم إذاعاتها البرامج الخاصة والموسيقى والمسلسلات الدرامية وأنباء المبشرين والأخبار المسيحية ، وعلى كل فإن جميع برامجها لها صفة دينية مسيحية .

محطة روفوج :

والمحطة الكبرى الثانية التى كانت تعمل فى أفريقيا بإشراف البعثات الدولية التبشيرية هى محطة راديو صوت الإنجيل أو روفوج Radio Voice of the Gospel ، وكلمة روفوج هى الحروف الأولى من عبارة راديو صوت الإنجيل ، وقد بدأت عملها فى أديس أبابا بالحبشة عام ١٩٦٣ ، وكانت هناك هيئتان بروتستانتيتان قد تقدمت كل منهما للحكومة الحبشية للترخيص لها بالإذاعة ، واتفقتا فيما بينهما على أن الهيئة التى تمنح الترخيص تقدم للهيئة الأخرى نصف الوقت وتشاركها فى النفقات ، وبالفعل نجحت هيئة اتحاد الكنائس العالمية اللوثرية ومقرها فى جنيف بسويسرا فى الحصول على الترخيص ، وتولت إقامة المحطة ، ومنحت هيئة المجلس المسيحى للشرق الأوسط نصف خدماتها الخارجية ، ثم وسعت الهيئتان التبشيريتان شركتهما بضم جماعات كنائيسية دولية للقيام بأعمال التبشير وهذه الهيئات أعضاء فى الهيئة الدولية للاتصال المسيحى وأعضاء عاملون فى فرع الهيئة التابع للكنيسة ، وهكذا ظهرت روفوج

كقاعدة إذاعية تبشيرية فى أفريقيا ، وفى عام ١٩٧٢ تقدمت المحطة تعرض بناء محطة تليفزيونية فى أديس أبابا استجابة لطلب الحكومة الحبشية ، وغنى عن البيان أن هذه المحطة فى إذاعتها المحلية بأثيوبيا كانت تعمل على تحويل المسيحيين الأرثوذكس التابعين للكنيسة المصرية إلى بروتستانتيين ، كما تحاول تحويل المسلمين عن طريق إذاعاتها المحلية والخارجية إلى بروتستانت .

وكانت تعتمد محطة روفوج على الاستديوهات الاقليمية أو المكاتب المسيحية المنتشرة فى أفريقيا فى تزويدها ببرامجها المذاعة ، غير أنها كانت تقوم بإعداد نشرة إخبارية بأكثر من اثنتى عشرة لغة تذيعها من أديس أبابا ، وغالبية برامجها يتجه نحو المجالات الاقتصادية والاجتماعية المسيحية ، والسمة الرئيسية التى تميز روفوج عن غيرها من المحطات المماثلة أنها تهتم فى المقام الأول بالناحية الايفانجيلية متمشية فى ذلك مع الحركة التبشيرية بوجه عام ، وقد علق أحد القساوسة الكاثوليك بأن المحطات تهتم بروح الإنسان كما تهتم بمصالحه ، وكانت تبشر بالقيم المسيحية عن طريق المفاهيم الاجتماعية ، ولا شك أن المحطة كانت تمتلك عدداً ضخماً من الكتاب والمخرجين المجيدين ، كما تقوم بتدريب أعداد كبيرة من الأفريقيين ، ومتابعة رؤساء المكاتب الإقليمية بحيث ينخرطون فى فصول تعليمية لصقل معنوياتهم فى أديس أبابا مرة كل سنتين ، كما بعثت بعثات إشرافية تعليمية من أديس أبابا إلى المكاتب الإقليمية .

وهناك محطة راديو فيا Far East Broadcasting Association وهى عبارة عن الحروف الأولى لعبارة (هيئة الإذاعة للشرق الأقصى) وتمتلك جهاز إرسال فى جزر سيشيل ، وهى مستعمرة بريطانية شبه مستقلة فى المحيط الهندى قرب كينيا ، وهى وإن كانت تبعد آلاف الأميال عن أفريقيا فإنها من الناحية السياسية جزء منها ، والمنطقة التى تستهدفها هى الهند وباكستان والشرق الأوسط والساحل الشرق لأفريقيا .

المحطات التابعة للكنيسة خارج أفريقيا :

هناك محطتان هامتان خارج حدود أفريقيا توجهان إذاعاتهما نحو أفريقيا .

الأولى : محطة راديو الفاتيكان .

والثانية : محطة الإذاعة العالمية .

محطة راديو الفاتيكان :

كانت محطة الفاتيكان تسمى فيما مضى « أول محطة دولية حقيقية » وقد بدأت عملها فى

عام ١٩٣١ مستخدمة جهاز إرسال قوته ١٠ كيلو وات أهداه ماركونى إلى البابا ، وفى عام ٧٢ امتلكت محطة راديو الفاتيكان ٦ محطات إرسال تعمل على الموجة القصيرة تتراوح قوتها من ٢٥ كيلو وات إلى ١٠٠ كيلو وات إلى جانب محطات إرسال تعمل على الموجة المتوسطة وتستخدم جميعها فى الإرسال إلى أفريقيا باللغات : العربية ، والإنجليزية ، والأمهرية ، والتجرينية ، والفرنسية ، والبرتغالية .

أما محطة الإذاعة العالمية فقد بدأت بالفعل عملها داخل القارة الأفريقية ، وبالتحديد فى المنطقة الدولية بطنجة عام ١٩٥٤ ، واضطرت هذه المحطة إلى أن تبحث لنفسها عن مكان آخر تعمل به إثر استقلال المغرب وعدم موافقته على بقاء هذه المحطة ، وبالفعل تمكنت من عقد اتفاق مع محطة راديو مونتكارلو فى موناكو ، يقضى بمساهمتها فى استخدام محطات إرسالها ، وفى عام ١٩٧١ امتلكت هذه المحطة جهازى إرسال على الموجة القصيرة قوة كل منهما ١٠٠ كيلو وات ، إلى جانب عدد من أجهزة الإرسال على الموجة القصيرة أيضا بقوة خمسين كيلو وات ومائتين وستين كيلو وات ، وعلى الموجة المتوسطة بقوة خمسمائة كيلو وات فى جزيرة بوناري Bonaire إحدى جزر هولندا ، وتقوم هذه المحطة بإذاعة برامج تبشيرية ومناطقها المستهدفة البلاد العربية وجبال المغرب فى شمال أفريقيا ومنطقة الزولو فى جنوب أفريقيا ، وقامت أيضاً بافتتاح محطة إذاعة للموجة القصيرة فى جنوب أفريقيا عام ١٩٧٣ بقصد توجيه إذاعات تبشيرية باللغات الأفريقية المحلية للدول الأفريقية المجاورة لحكومة جنوب أفريقيا .

وهكذا نرى أن أفريقيا مغطاة تغطية كاملة بالإذاعات التبشيرية المسيحية سواء من خارجها أو داخلها ، على أنها لا تستخدم جميع اللغات الأفريقية بقدر توفر الإمكانيات الهندسية .

التدريب :

يلاحظ أن المؤهلات والمواهب المطلوبة لإقامة إذاعة دينية قوية لا تختلف كثيراً عن المواهب أو المؤهلات المطلوبة لإقامة إذاعة عادية فيما عدا إلمام الموظفين بالنواحى الدينية ، ولهذا فإننا نجد مراكز التدريب المسيحية تسمح لموظفى الإذاعات الحكومية الأفريقية بالانخراط فى سلك التدريب بها دون الموظفين غير الرسميين .

ولعل أهم المراكز التدريبية ذلك المركز الذى أقامته فى عام ١٩٧٢ هيئة مؤتمر الكنائس لعموم أفريقيا بمدينة نيروبى فى كينيا ، على أن تاريخ هذا المركز يعود إلى عام ١٩٦١ عندما

اجتمع حوالى ٩٠ مندوباً من أفريقيا وأوربا والولايات المتحدة فى المركز المسكونى بناحية مندولى فى زامبيا ، لدراسة الطرق المثلى لاستخدام الكنائس الأفريقية لوسائل الاتصال الجماهيرية فى عملياتها التبشرية ، وبعد دراسات مستفيضة فى لجان عديدة قررت هيئة مؤتمر الكنائس إقامة مركز تدريب فى نيروبى لوجود التسهيلات اللازمة فيها ولاستقرارها السياسى وسهولة الوصول إليها ، وبالتالى قام المركز فى عام ١٩٦٥ بتدريس مادة الإخراج الإذاعى لمدة خمسة أو ستة أشهر فى السنة ، وكان عدد الطلبة فى ذلك الحين لا يتجاوز ١٥ طالباً ، وفى الفترة من ١٩٦٦ ، حتى ١٩٧١ تخرج فى المركز ٩٩ طالباً ، ينتمون إلى ٢٦ دولة ، منها ١٩ دولة أفريقية ، وينتمى هؤلاء الطلبة إلى ١٨ مذهباً من المذاهب المسيحية بتداء من الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية إلى المجتمع الربانى ، ومن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى جماعة الأدفانتست إلى اليوم السابع ، وقد تخصص المركز فى أول الأمر فى تدريس الفنون الإذاعية ثم شرع فى عام ١٩٧٣ ، فى إنشاء استديوهات تليفزيونية ، وبالفعل بدأ فى عام ١٩٧٤ فى تدريس الفنون التليفزيونية ويرأسه أحد القساوسة النيجيريين ويخرج حوالى ١٥ من الافراد فى السنه .

وقد وجدت الإذاعات التبشيرية أنها لا تستطيع أن تستغنى كثيراً عن بعض موظفيها لمدة ستة أشهر ، وهى فترة التدريب ، ومن ثم قام المركز بفتح فصول للتدريب السريع . كما أخذ يرسل مدرسيه إلى هيئات الإذاعة والتليفزيون الأفريقية ليلقوا محاضراتهم على الطلبة هناك ، كما ينشر المركز مجلة إذاعية تستخدمها محطات الإذاعة والتليفزيون الأفريقى .

وفى مركز التدريب بنيروبى يقوم المدرسون بالتدريس باللغة الانجليزية كما يقوم المدرسون بالمركز الفرنسى الكاثوليكى بالتدريس باللغة الفرنسية .

ولا تخرج هذه المراكز قادة إذاعيين أو قادة فى وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى ولهذا نجد المركز الدولى للتدريب يأخذ عادة حوالى خمسة عشر شخصا من كبار الموظفين من محطات الإذاعة الأفريقية كل سنة ويقوم بتدريبهم على حسابه بالإذاعة البريطانية ومركز (سيدو) .

والمركزان اللذان أشرنا إليهما يعتبران نموذجاً لمراكز التدريب المسيحية على الإذاعة ووسائل الاتصال والواقع أن كل هيئة من الهيئات التبشيرية العاملة فى أفريقيا لها مركزها الخاص المصغر إلى جانب مراكز أخرى للتدريب تشرف عليها الإذاعات الحكومية .

فلسفة البرامج والإذاعات المسيحية :

ورثت الإذاعات الرسمية من أيام الاستعمار تقليدا يقضى بمنح أوقات إذاعية للكنائس والمبشرين ، وقد يكون لهذه الكنائس التى تستخدم هذا الوقت فلسفة ، ولكن يبدو أن هذه الفلسفة مقصورة على المحطات التى تمتلكها الكنائس ملكية كاملة برغم وجود فرصة كاملة لشرح هذه الفلسفة عن طريق المحطات الرسمية ، بالإضافة إلى فرصة تنفيذها فى المحطات التبشيرية ، فمن ناحية الكنيسة الرومانية الكاثوليكية نجد فلسفتها مقصورة على راديو الفاتيكان والمحطات المحلية الصغيرة فى أفريقيا ، ومن هذا نفهم – بدون أن نحيد عن الصواب – أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تعتبر راديو الفاتيكان المتحدث الرسمى ، على الرغم من أن وجود المحطات المحلية الكاثوليكية ، بل برامج الإذاعة الكاثوليكية الرومانية التى تقدمها المحطات الرسمية ، تستطيع أن تقدم فصولا من الفلسفة التبشيرية بشكل أكثر إيجابية من راديو الفاتيكان ، لأن المحطات المحلية أعرف بثقافة الشعب المستهدف من إذاعة الفاتيكان .

والإذاعات الحكومية بتخصيصها – مجاناً – أوقاتاً للبرامج الدينية قد أبعدت فى الحقيقة وبطريقة مؤدبة الزعامات الدينية عن التدخل فى المسائل والمشاكل الحادة ، كالتنمية والسياسة والتعليم وبناء الأمة ، أما المحطات الخاصة التى تمتلكها الكنائس – والتى تتمتع بحرية التعبير فى جميع الموضوعات بغض النظر عن رأى الدولة – فتشكل تحدياً كبيراً لسياسة الدولة العامة ، ولعل إذاعة صوت الإنجيل فى أديس أبابا المعروفة باسم (روفوج) تعرض لنا قبل استيلاء الكوبيين عليها – مثلا على هذا التحدى . فمن المعروف أن هذه المحطة ملك للاتحاد الدولى اللوثرى للإذاعة ، وهو يقوم بتشغيلها بالاتفاق مع الهيئة العالمية للاتصال المسيحى وجماعة ساعة القيامة ، وتقوم هذه المحطة باستخدام جهازى إرسال على الموجة القصيرة قوة كل منهما ١٠٠ كيلو وات ، ولها صوار خاصة متعددة الاتجاهات ، وتذيع هذه المحطة بـ ١٣ لغة ، وتوجه إذاعتها إلى جميع أنحاء أفريقيا فيما عدا الشمال الغربى كذلك تمتلك محطة متوسطة تغطى أديس أبابا ويمكن تلخيص فلسفة روفوج فيما يلى :

١ – فيما عدا الاخبار تعتمد المحطة فى برامجها كلية على ما ترسله الكنائس من برامج محلية فى المناطق المستهدفة ، ولا تقوم المحطة بإنتاج برامجها بنفسها ، وهكذا نرى أن روفوج قد تجنبت صعوبتين فى عملية التبشير :

الأولى : بناء « مدينة إذاعية » قوامها الموظفون والأصدقاء . .

الأخرى : جلب المبشرين والشماسة من المناطق التى يعيشون فيها ، والمحطة لا تقبل برنامجاً أعد فى أوربا لمستمعين أوربيين أو فى أمريكا لمستمعين أمريكيين .

٢ - لا تسمح المحطة بأن توجه إذاعة إلى أية منطقة مدتها أقل من نصف ساعة يومياً مع المحافظة على توقيت البرنامج وتردده ، أى تمتنع المحطة عن تغيير الموجة أو تعديل الوقت والنقطة التى تهتم بها كل الاهتمام أن يتمشى البرنامج مع حاجات الشعب فى المنطقة المستهدفة ، وأن تقوم الكنيسة المحلية بإعداده وأن يسمع فى منطقتها وبلغة شعبها .

٣ - يراعى فى مواد البرنامج أن تكون متوازنة أى بنسبة ٣٠ إلى ٧٠ ، بمعنى تخصيص ٧٠ ٪ من وقت البرنامج للمعلومات والموضوعات التعليمية والثقافية و ٣٠ ٪ للموضوعات الكنائيسية المباشرة مع رفض إدخال مواد جديدة على البرنامج مثل البرامج الترفيهية الإعلامية ، على أن تكون جميع المواد المقدمة مناسبة للمجتمع وتعالج مشاكله ومصالحه ، وهذه الإذاعات تبدى التعليم على الترفيه كوسيلة لمساعدة الأفريقيين ، خاصة فى المناطق التى توجد بها مدارس ابتدائية تستوعب الأطفال وفلسفتها هى تقديم العلم إلى هؤلاء الأطفال والبالغين عن طريق الإذاعة .

٤ - تهتم محطة روفوج بأبحاث المستمعين وبالعلاقات العامة ، وقد خصصت قسماً مستقلا لذلك ، به موظفون متخصصون فى أعمال البحوث وفى التعرف على ميول المستمعين .

٥ - تهتم المحطة من البداية بعمليات التمرين والتدريب ، وقد استفادت إفادة كبيرة من فصول التدريب المختلفة سواء تلك التى أقامها اتحاد المواصلات الدولية ، أو المنح التى قدمتها الإذاعات المختلفة ، ومن أهمها إذاعات بريطانيا وهولندا وألمانيا الغربية والدانمارك وفرنسا . هذا . . ويوجد بالمحطة قسم للتدريب ، وهى لا تنظر إليه كعمل إضافى بل كعمل ضرورى وكجزء لا يتجزأ من مهمتها .

٦ - تراعى المحطة فى نشرات الأخبار اهتمامات القسم العريض من المستمعين وفق الأبحاث التى تجريها ، وسياستها فى الأخبار الابتعاد عن كل الاخبار المثيرة مع تحرير الأخبار العالمية بشكل يتفق مع تقاليد وثقافة المستمعين وهى تهتم بالأخبار الدولية وبالأخبار المحلية ، ولا سيما الأخبار ذات الصبغة القومية ، ولها فريق من المذيعين متخصص فى إذاعة نشرات الأخبار ، ونشير هنا إلى أن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عندما اجتمع فى أوائل عام ١٩٧٢ بأديس

أبابا طلبت السكرتارية العامة للأمم المتحدة من هيئة روفوج أن تغطى الاجتماعات ، علما بأنها المرة الأولى التى يعقد فيها مجلس الأمن بأفريقيا .

٧ – تهتم المحطة بالتطورات الاقتصادية ، وهذا الدور الجديد الذى اضطلعت به الإذاعة الدينية روفوج كان بناءً على توصية من مجلس الكنائس الإيفانجيلية الألمانية ، والذى تعهد بتغطية ٤ (ربع) نفقات تشغيل المحطة ، وقد اعترفت الأمم المتحدة عن طريق لجنتها الاقتصادية بدور المحطة فى التنمية الاقتصادية ، وذلك بعد الندوة التى أقامتها حول التنمية الريفية فى أفريقيا بمدينة أديس أبابا فى صيف ١٩٧١ ، وقد طلبت اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة مساعدة روفوج فى إنتاج بعض برامج التنمية ، وقد بدأت فعلا منذ عام ١٩٧١ بإعداد سلسلة من ١٢ حلقة تدور حول التنمية الريفية ، كتوفير المياه ، وتطوير استخدام الآلات الزراعية والتعاونيات الزراعية ، وزراعة الأسماك ، وتحسين عمليات التخزين . وكان الهدف من هذه البرامج أن تأتى بردود فعل وبقرارات ذاتية حاسمة ، وأن تؤثر على الأشخاص ذوى النفوذ فى المجتمعات الريفية والذين لهم رأى فى عملية التنمية الريفية ، وقد لخص مدير هذه الإذاعة فلسفتها فى مذكرة وجهها إلى محررى الأخبار قال فيها : « تحاول محطة روفوج جاهدة خدمة الشعوب الأفريقية والشرق الأوسط وآسيا ببذل كل ما فى وسعها فى مجالات التعليم وبناء الدولة وتذليل الصعوبات أمام الأمم المستهدفة للإذاعة ، والمحطة فى معالجتها لهذه الأمور لا تفعل ذلك من وجهة النظر الأوربية أو الأمريكية ، ولا هى تتحدث إلى الشعوب باعتبارها محطة تعمل من الخارج إلى قلب أفريقيا » . ويرى الكثيرون أن هذه المحطة تعتبر من أخطر قنوات الاتصال والإعلام ، ويرى البعض الآخر أن فكرة المحطة إنما تشير إلى تأمين مستقبل العالم الغربى وليس إلى حاضر أفريقيا ، ولكن يرى بعض رجال الدين المسيحى أن مجتمع الشعوب الأفريقية سوف يتركز فى المستقبل حول وسائل الاتصال ، وقد يكون من الضرورى تنمية الشعور بأهمية وسائل الاتصال بين الأفريقيين باعتبارها أجهزة تعليمية غير مركزية ، ثم الاستفادة من هذه الوسائل فى الأغراض التبشيرية باعتبارها تفضل المدرسة ، لأنها وسيلة إعلام شامل للتعليم ، فى حين أن المدرسة لها برنامج معين تلتزم به ، وفى ضوء هذه الآراء والحقائق مجتمعة يمكن النظر إلى دور الإذاعة الدينية فى أفريقيا .

الفصل الثالث

التداخل

لا نستطيع أن نقول إن الترددات الإذاعية التى تعبر الحدود الوطنية وتصل إلى منطقتها المستهدفة واضحة على طول الخط ، فأحياناً تفقد هذه الترددات بعض قوتها لأسباب طبيعية ، كوجود فجوات فى طبقة الاينوسفير تختفى فيها الموجات القصيرة ، أو وجود بقع شمسية ، أو حتى فى وقت الشفق الشمالى ، أو عند الغروب والشروق ، أو بسبب وجود عواصف كهربائية ، أو وجود تكوينات جيولوجية تمتص الموجات ، وفى بعض الأحيان لا يسمع التردد بسبب تداخل صناعى يقيمه الإنسان وأعنى بذلك الشوشرة .

والتداخل المقصود يأخذ عادة شكل ضوضاء مرتفعة أشبه ما تكون بآلة تعمل بالديزل أو البترول ، أو يأخذ شكل عواء أو عويل ، متصل ، أو أن يكون كصوت البومة الذى يرتفع وينخفض ، أو قد يأخذ شكلا آخر هو صوت فرقعة كهربائية استاتيكية ، وعلى كل فإن عملية التشويش هى صوت مزعج يتطلب من المستمع قوة غير عادية واحتمالا وصبرا بالغين إذا ما أراد أن يتابع الاستماع ويلتقط بعض كلمات أو حروف من الرسالة الأصلية التى يغطيها التشويش ، وقد لجأ الاتحاد السوفيتى إلى طريقة أقل إزعاجاً للأذن ، ولكنها بنفس الفاعلية وهى استخدام المورس وقد يكون على هيئة رمز للمحطة التى تقوم بالتشويش فإذا كانت محطة نورمانسك استخدام الحرفان .M.R بطريقة مورس ، كما لجأت إلى إذاعة البرنامج الثانى من موسكو على موجات قصار لها نفس الترددات التى تحملها الموجات المراد التشويش عليها والآتية من الخارج .

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن عمليات التشويش فى مطلع استخدام الراديو قبل الحرب العالمية الثانية لم تكن مقصودة ، وكانت غالبيتها بسبب طغيان موجات القوات المسلحة أو الإذاعات

المحلية على موجات الدول المجاورة التى كانت تستخدم نفس الترددات أو ترددات قريبة منها ، على أن الإمعان فى استخدام الموجات القصيرة أدى فى نفس الوقت إلى تطور فى حيز الترددات وبالتالى زادت المشاكل ، خاصة أن أوربا أو على الأقل نصف دولها ، قد تعود على التقاط الموجات القصار عند بداية الحرب الثانية . . هذا . . وقد جرت محاولات عديدة لتنظيم توزيع الموجات دولياً ، وللحد من الفوضى الضاربة فى استخدام الموجات ، ولكن هذه الجهود والمحاولات لم تقابل بنجاح يذكر .

وكانت دول المحور سواء قبل الحرب أو بعدها أكثر الدول نشاطاً فى استخدام التشويش ، ولكن كان هناك تباين وتناقض كبيران فى كفاءة عمليات التشويش الألمانية والإيطالية ، إذ اشتهرت الأخيرة (إيطاليا) بأنها تقوم بعمليّها عشوائياً وبدون تخطيط دقيق ، فكانت تطلق الأصوات المزعجة على الموجات المراد التشويش عليها قبل بداية المحطة بوقت طويل ، وبعد انتهاء الإذاعة بوقت أطول ، ولم تكن دقيقة فى تعيين التردد ، حتى أنها فى بعض الأحيان كانت تشوش على إذاعاتها نفسها ، أما ألمانيا فكانت أشد ما تكون انتظاماً وكفاءة فى عملية الدفاع الأثيرى وكانت أحياناً توقف برنامجاً من برامجها أو موجة من موجاتها المستخدمة لتستخدم جهاز الإرسال الخاص بها فى التشويش على إذاعة معادية ، وقد اهتمت موسكو اهتماماً كبيراً بالتشويش على محطات الإذاعة الألمانية بعد أن انتهى التردد والتلاطف بين الدولتين نتيجة ميثاق مولوتوف ريبتروب ، وحدث فى إحدى المرات أن أمر المهندسون الروس بأن تركب موجة روسية على إحدى الموجات التى كان يذاع عليها خطاب هتلر قبل ميونخ مباشرة ، وكان من نتيجة ذلك (أن رجال الدعاية فى لندن اعتبروا هذا التشويش عملية ناجحة للغاية ، فى حين انتقد علماء علم النفس الروس المهندسين ، لاستخدام أصوات رعدية فى خلفية الخطاب ، واحتجوا بأن الرعد ساعد على إبلاغ رسالة هتلر للجماهير عن طريق التخويف) .

ولما اقتربت الحرب العالمية الثانية لم يكن الشىء الذى يقلق بال الإذاعيين صعوبة توزيع الترددات أو وجود عمليات تشويش شاملة ، بل كيف يمكن صرف طائرات العدو عن ضرب محطات الإرسال ، وبالتال إسكات صوت الدولة ، وكانوا يخشون أن تلتقط طائرات العدو موجات الإذاعة وتتخذها مرشداً لها فتتبعها إلى حيث محطات الإرسال فتضربها بقنابلها ، على أن رجال الإذاعة البريطانية توصلوا إلى ابتكار يمنع هذا التتبع ، يقوم على تشتيت التردد ،

بمعنى إقامة عدد من أجهزة الإرسال لها نفس التردد تماماً فى مناطق مختلفة ، فلا تعرف الطائرة المغيرة أين تتجه ، ولم يتمكن الألمان من اكتشاف هذه الطريقة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وكانوا يضطرون إلى غلق أجهزة الإرسال عند بدء الغارة الجوية ، وفى الثلاثين من يناير عام ١٩٤٨ كان من المقرر أن يلقى هتلر خطاباً فى الذكرى العاشرة لتولى الحزب النازى الحكم ، وكان الحلفاء قد قرروا ضرب برلين فى نفس اللحظة ومنع هتلر من إلقاء خطابه أو منع نقله بالإذاعة حتى يدرك العالم قوة الحلفاء ، ولظروف ما حل جوبلز محل هتلر ولكن الحلفاء قاموا بغاراتهم ، واضطر الألمان إلى إيقاف الإذاعة بعد أن ظهرت أصوات الانفجارات وصيحات الشعب خلف خطاب جوبلز .

وهذا النوع من التداخل لا يمكن مباشرته فى أيام السلم ، ولكن هناك أنواع أخرى لا تقوم على الشوشرة بل تتناول صرف الناس عن الاستماع إلى الإذاعة المرغوب عنها ، ومن هذه الوسائل توزيع أجهزة استقبال لا تستقبل إلا الموجات المسالمة التى لا ضرر منها ، وكان الألمان رواداً فى هذا الميدان عندما صنعوا راديو الشعب ، وكان زهيد الثمن ، بل يقل ثمنه كثيراً عن أمثاله من أجهزة الاستقبال ، وأقبل الناس على شرائه بكثرة ، كذلك وزع الألمان أجهزة استقبال فى أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط ، وفعل البريطانيون نفس الشىء . . وقد أشارت صحيفة « وول ستريت » فى مارس عام ١٩٦٦ إلى أن الأمريكان وزعوا عشرة آلاف راديو من نوع الترانزستور لا يستقبل غير الموجات الأمريكية والفيتنامية الجنوبية ، وقد قام الأمريكان بإلقاء هذه الأجهزة على فيتنام الشمالية التى كانت تحارب فيتنام الجنوبية ، وهناك طريقة أخرى للتغلب على التداخل تتمثل فى الإذاعات السلكية ، بمعنى تتلقى محطة كبيرة معتمدة من الدولة الإذاعة من الجو ثم تعيد بثها على أسلاك تليفونية متصلة بمكبرات صوت ، سواء فى المنازل أو المحلات العامة ، والغرض أن تحل محل أجهزة الموجات القصيرة والمتوسطة التى تلتقط أية موجات سواء مرغوب فيها أو غير مرغوب ، وقد ظهرت الإذاعات السلكية أوصناديق الاستماع فى جميع أنحاء العالم من الشرق الأوسط إلى الاتحاد السوفيتى إلى الصين ، كما ظهرت فى انجلترا وهولندا وغرب أفريقيا وجهات عديدة أخرى .

وتستغل الصين فى الوقت الراهن صناديق الاستماع استغلالا واسع النطاق ، بل إنها تعلن بأن نهضتها فى أواخر الستينيات كانت نصراً شعبيًا ضد عمليات التخريب التى كان يقوم بها ليوشاوشى Leu Shao-Chi وفى الاتحاد السوفيتى حلت أجهزة الراديو العادية محل صناديق

الاستماع ابتداء من عام ١٩٦٣ ومنذ ذلك التاريخ والإذاعة على التشكيل الذبذبى تنتشر انتشاراً حثيثاً ، وعلى الرغم من استمرار استخدام صناديق الاستماع فى المناطق الريفية والنائية فإن هناك بعض دول لا تزال تستخدم الموجات القصيرة فى إذاعة برامجها المحلية ، وذلك بسبب اتساع رقعة البلاد ورخص أجهزة الموجات القصيرة نسبياً ، ومن هذه الدول الاتحاد السوفيتى والهند ونيجيريا ، وبالتالى نجد أن صناديق الاستماع تكاد تكون مقصورة على المراكز الرئيسية المأهولة بالسكان فى غرب الاتحاد السوفيتى أو فى المصانع .

وفى أوائل الستينيات استنت حكومة جنوب أفريقيا سياسة مقصودة ، هى إدخال التشكيل الذبذبى واستخدامه وحده فى الإذاعة ، ذلك إلى جانب صناديق الاستماع فى بعض المناطق التى يسكنها الأفريقيون بجنوب أفريقيا ، والسبب فى ذلك أن حكومة جنوب أفريقيا أصبحت تشعر بحساسية بعد حادث « شارب فيل » وتحاول تلافى نقد الدول الأجنبية ، مما أدى إلى إدخال نظام جديد فى الموجات الإذاعية هو التشكيل الذبذبى وتشجيع بيع أجهزته التى تقوم على استخدام الترانزستور والتى يصعب تحويلها إلى أجهزة استقبال للموجة القصيرة إلا بنفقات وجهد كبيرين ، وكان من نتيجة إدخال التشكيل الذبذبى وقصر البيع على أجهزته أن منعت الحكومة العنصرية فى جنوب أفريقيا وصول الدعاية التحررية على الموجة القصيرة والمتوسطة إلى الأفريقيين فى جنوب أفريقيا .

ويجدر بنا أن نشير إلى تجربة وقعت فى اليونان خلال الانقلاب العسكرى ، وهى أنّ العسكريين تمكنوا من وضع أيديهم على أجهزة الإرسال الأمريكية الخاصة بصوت أمريكا والموجودة فى اليونان ، والتى كانت توجه برامجها إلى شرق أوربا ، وبدأ العسكريون فى استخدام هذه الأجهزة لصالحهم بعد أن هددوا بإلغاء التسهيلات الممنوحة لصوت أمريكا إلا إذا قبلت المحطة فرض نوع من الرقابة على البرامج المذاعة باللغة اليونانية ، وبالتالى السماح بما يريد العسكريون إذاعته من المحطات الأمريكية أو عدم إذاعة أى نبأ لا يريدونه ، مثال ذلك بيان كرمليس الصادر فى ٣٠ سبتمبر عام ١٩٧٩ ، والذى أذاعته جميع محطات العالم فيما عدا صوت أمريكا تلبية لدعوة العسكريين .

وعليه . . فهناك خطورة كبيرة فى إقامة محطات إذاعية على أرض دولة أخرى إذ لا يمكن أن نضمن بقاء هذه الدولة على صداقتها أو قبولها استضافة أجهزة الإرسال إلى الأبد ، وفى نفس الوقت قد تتعرض الدولة المضيفة لإذاعات هدامة من نفس هذه الأجهزة التى

تستضيفها ، وعلى كل فإن رجال الإذاعة الدولية الذين لهم ارتباطات هندسية شتى فى مختلف البلاد يتعرضون دائماً لمفاوضات مجحفة بالنسبة لوضع أجهزة إرسالهم وحرية ما يذاع على هذه الأجهزة ، وفى الحالة التى نحن بصددها نشير إلى أن صوت أمريكا كان على استعداد للتجاوب مع ثورة اليونان أكثر من الإذاعة البريطانية التى اتفقت مع رجال هذه الثورة بشكل ضمنى على أن تغلف أخبارها بشكل لا يثير ثائرة الرئيس مكاريوس حتى تحتفظ بمحطتها فى قبرص .

ولعل أكثر الطرق استخداماً فى التداخل هى تخطيط وتنفيذ دعاية معارضة أى يأخذ التداخل صورة المعارضة بالحجج لا بإفساد الموجات ، فالمفروض أن تهتم الإذاعات بالرد فى برامجها المحلية على الدعاية المضادة الصادرة من المحطات الأجنبية ومثال ذلك الحملة المضادة التى قامت بها إذاعة موسكو محلياً ضد الإذاعة البريطانية ، وتفصيل ذلك أنه بعد أن تناسى الناس الحرب الباردة لم تهتم الإذاعة الروسية بالإشارة إلى الإذاعة البريطانية أو أية إذاعة أجنبية أخرى بعد الوفاق بين الدولتين العظميين وبالتالى توقفت عملية التشويش فى عام ١٩٦٣ ، وكان عدم الاهتمام بالرد على دعاية الدول الغربية نوعا من الهدنة أو يعود إلى رغبة الروس فى عدم إعطاء أهمية لما تقوله الإذاعات الغربية أو التعريف ببرامجها المسموعة داخل الاتحاد السوفيتى ، ولكن حدث فى عام ١٩٦٨ عندما اشتدت الأزمة التشيكوسلوفاكية أن هبت الإذاعة الروسية إلى مهاجمة محطات الإذاعة الغربية وبلغ هجومها أشده إبان إعادة غزو تشيكوسلوفاكيا ، وتمركز القوات السوفيتية لمدة سنة فى تشيكوسلوفاكيا لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه ، وقد أشارت إذاعة موسكو فى سبتمبر عام ١٩٦٨ فى برنامجها العام إلى الإذاعة البريطانية فى عبارات جارحة فقالت : « الإذاعة الروسية من لندن عبارة عن متحف يضم مجموعات متباينة من المهاجرين الذين لم ينسوا بعد لغتهم الروسية التى كانت لغة آبائهم وأمهاتهم فى يوم من الأيام ، ومنذ أجل بعيد وقد اجتمع هؤلاء الشتات على شىء واحد هو استعدادهم للنيل من وطنهم الأم والحط منه » وقد حدث نفس الشىء تقريباً فى مصر عندما أذاعت لندن بعض أكاذيبها عن ثورة التصحيح ، ولكن إذاعة القاهرة اكتفت بالتكذيب ولم توجه إليها مثل هذا السباب ولم تتورع موسكو عن توجيه سبابها إلى الأشخاص القائمين على الإذاعات المعادية لها على الرغم مما يحمله السباب من خطأ فى الدعاية ، فنجدها مثلا تنزل على مدير الإذاعة البريطانية فى ذلك الوقت الذى اشتهر بعداوته للشيوعية وتذيع جزءاً مما تصورته عن حياته سواء كان هذا التصور صدقاً أم كذباً .

ولعل ذروة الحملة كانت عندما نشرت صحيفة ازفستيا ومجلة بيدلتا Bedelta تحقيقاً عن علاقة الإذاعة البريطانية بالمخابرات الإنجليزية كما نشرت صوراً فوتوغرافية بأسماء الصحفيين وأرقامهم السرية ، فردت الصحافة البريطانية مستهزئة بما نشرته أزفستيا ، كما نفى أحد محرري جريدة « إيفنج نيوز » المسائية بلندن ما أشارت إليه الإذاعة الروسية من أن إذاعة لندن تستخدم بعض الألحان كشفرة لعملائها .

وليس من الغريب أن تستخدم الألحان كشفرة ، فهذا معروف ومتبع فى جميع أنحاء العالم ، ولكن المهم أن السلطات السوفيتية اتخذت من ذلك ذريعة لتشديد عملية صرف الناس عن الإذاعة البريطانية ، واعتبرت أن الاستماع لإذاعة لندن وما يماثلها إنما هو بمثابة اتصال بمخابرات أجنبية . وبعد مضى عدة سنوات خفت حدة الإذاعة ولكن تركت وراءها أضراراً كبيرة بالنسبة للإذاعة البريطانية . . فى عام ١٩٧٢ أعادت موسكو موضوع الصلة التى تربط الإذاعة البريطانية بالمخابرات الانجليزية ، كما راحت تقارن بين ما أسمته بأكاذيب جوبلز وما تذيعه لندن فى خدمتها بالإذاعة الروسية ، واصفة هذه الإذاعة بأنها تفتقر إلى المبادئ الأولية للأخلاق .

والواقع أن عملية إقناع المستمع بالانصراف عن إذاعة ما ، ربما لا تكون فعالة ، فتجد الدولة أنه من الضرورى عليها فرض عقوبات على من يستمع لإذاعة أجنبية ، وكان الألمان يفرضون عقوبة الإعدام على من يستمع للإذاعة الروسية خلال الحرب الماضية ، وقبل ذلك كانوا يفرضون عقوبات صارمة « لم تصل إلى حد الإعدام » على هؤلاء الذين استخدموا المعلومات الصادرة عن محطات أجنبية فى إحباط الدعاية النازية ، وقد أظهرت مذكرات جوبلز أنه كان يشكو من أن حكومة إيطاليا قد فشلت فى منع رعاياها من الاستماع لمحطات أجنبية حتى فبراير عام ١٩٤٢ ، واتخذ الحلفاء من هذا الوضع مؤشراً يستدلون به على فاعلية دعايتهم ، فإذا زادت العقوبة على المستمعين عرفوا أن دعايتهم تلقى استجابة أكثر .

ومن ناحية الإذاعة الروسية نجد أن القانون الروسى يحرم تسجيل أو نشر ما تذيعه المحطات الأجنبية بما فى ذلك المحطات العامة المعروفة .

وحدث فى الحرب العالمية أن أصدر الاتحاد السوفيتى أمراً بمصادرة جميع أجهزة الاستقبال التى يمتلكها الأفراد ، واستمرت المصادرة حتى نهاية عام ١٩٤٥ ، ثم تساهلت السلطات مع من استطاع أن يتملك جهاز استقبال عادياً ، ولكنها عادت فى ذروة الحرب الباردة إلى معاقبة

الذين يحاولون التأثير فى تضامن الشعوب السوفيتية عن طريق استماعهم للدعايات الأجنبية ، ومرة أخرى نجدهم يفرضون عقوبات على « نشر الأكاذيب » التى يستمع إليها المستمعون من المحطات الأجنبية ولكن ليس على الاستماع نفسه ، ومهما يكن من أمر فإن المواطنين السوفيت يخافون حتى الآن من إعلان استماعهم لأية محطة أجنبية ، وإن تكن الحكومة السوفيتية فى الوقت الراهن تفصل بين الاستماع للمحطات الرسمية ، مثل القاهرة ولندن وصوت أمريكا ، والمحطات الهدامة مثل إذاعة أوربا الحرة وراديو الحرية .

أما عن الصين فيبدو أن الأقلية البسيطة التى تتلك أجهزة استقبال عادية والتى تستطيع أن تستمع إلى المحطات الأجنبية إنما تخاطر مخاطرة عظيمة بإظهار نفسها ، فهى معرضة للعقوبة الشديدة ، أو على الأقل للنقد الذاتى ، كذلك لا يسمح فى الصين « فورموزا » بالاستماع إلى راديو بكين .

وفى عام ١٩٦٦ أعلنت حكومة جنوب أفريقيا فرض غرامات مالية وعقوبة السجن على من يضبط وهو يستمع إلى أية محطة معادية تستهدف جنوب أفريقيا ، وتركت حرية تعيين هذه المحطات المعادية إلى وزير البريد ، ومن ثم أصبح من اختصاصه تحديد المحطات التى قد يؤدى الاستماع إليها المساس بمعنوية شعب جنوب أفريقيا أو ديانته أو أخلاقياته أو أى قسم أو طائفة من سكان أفريقيا الجنوبية ، وكان الحظر على الاستماع يتناول الميل إلى اعتناق مبدأ هذه المحطة أو أفكارها ، وفى عام ١٩٧٢ وافق برلمان جنوب أفريقيا على فرض عقوبة السجن لمدة سبع سنوات ، للمستمع للإذاعات الأجنبية ، وهكذا حاولت حكومة جنوب أفريقيا صرف الأفريقيين عن الاستماع إلى أية محطة فيما عدا المحطات المحلية التى تشرف عليها الحكومة ، ولكن لم تُجْدِ هذه الطريقة ، خاصة بعد حادث « شارب فيل » واستمر الأفريقيون يستمعون إلى محطات التحرير الخارجية خاصة من القاهرة ، وقد رأت حكومة جنوب أفريقيا كما سيأتى بيانه عدم استخدام الموجات المتوسطة والأكتفاء بالتشكيل الذبذبى .

وينجه الرأى إلى تفضيل الدعاية المضادة على عملية التشويش لسببين رئيسيين : الأول – أن التشويش يتكلف غالباً ، والآخر – أنه لا يمكن من الناحية الفنية طمس الإذاعة عن طريق التشويش طمساً كليًا . . فمن ناحية التكاليف تنظر الإذاعة ، التى تقوم بالتشويش نظرة جدية إلى تكاليفه ، ولا توجد فى الوقت الحاضر أرقام دقيقة عن تكاليف التشويش ، وإن تكن بعض المراجع قد ساهمت فى تقدير هذه التكاليف بناءً على ارشادات صادرة من الجانب

المضاد ، فمثلا فى عام ١٩٥٦ عندما توقف البولنديون عن التشويش وقدروا ما تكلفوه بنحو ١٧,٥ مليون دولار فى السنة ، وهذا المبلغ كان يكفى فى ذلك الوقت لتشغيل إذاعة دولية كبيرة مثل صوت أمريكا تذيع بأكثر من خمسين لغة ، وفى عام ١٩٦٢ أشارت بعض المراجع الغربية إلى أن الروس كانوا يستخدمون حوالى ألفى محطة إرسال فى عملية التشويش ، منها خمسمائة أو نحو ذلك فى أوربا الشرقية ، ونشرت مجلة الإكونوميست تقديراً عن تكاليف التشويش فى عام ١٩٧٣ جاء فيه أن عدد محطات الإرسال المستخدمة فى التشويش سواء فى الاتحاد السوفيتى أو أوربا الشرقية قد وصل إلى ثلاثة آلاف محطة ، تبلغ نفقات صناعتها أكثر من ٢٥٠ مليون دولار ، ونفقات تشغيلها (١٨٥)مليون دولار ، ولما كانت هذه الأرقام مستقاة من مصادر أمريكية فلم تأخذ بها مجلة الإكونومست ، إذ أشارت إلى أن التكاليف الرأسمالية تصل إلى ٢٥٠ مليون دولار ، فى حين لا تزيد تكاليف التشغيل على ١٠٠ مليون دولار ، ويقدر أحد المتخصصين من رجال المخابرات الأمريكية السابقين تكاليف التشويش بما يعادل خمسة أمثال مصاريف الإرسال .

وعملية التشويش عملية مكلفة من الناحية الهندسية ، فالموجة التى يراد التشويش عليها تصدر من نقطة صغيرة ، ولكنها تنتهى لتغطى منطقة واسعة جدًّا ، فإذا كانت المحطة المعادية تستخدم عدة ترددات وجب التشويش عليها ، سواء عن طريق الموجات السماوية ، أى عن طريق استخدام نفس الموجات التى يذاع عليها البرنامج ، أو عن طريق الموجات الأرضية التى تتداخل مع الترددات فى المنطقة المحيطة بأجهزة الإرسال ، وإذا ما كانت الدولة التى ترغب فى التشويش مترامية الأطراف مثل الاتحاد السوفيتى ، فلابد من استخدام عدد كبير من المتصتين الذين يستمعون ويتتبعون الترددات ، خاصة إذا كان التشويش جزئيًّا على بعض أجزاء البرنامج دون غيرها ، وهناك تكاليف غير مباشرة لابد من الإشارة إليها تتمثل فى نقل الموظفين الفنيين إلى مراكز التشويش لصيانتها والإشراف عليها ، ويقدر عدد هؤلاء الموظفين بما لا يقل عن عشرة آلاف موظف فى الاتحاد السوفيتى ، وحده ، ثم تكاليف المهمات وقطع الغيار اللازمة لمحطات التشويش ناهيك بأن نفس هذه المحطات كان من الممكن استخدامها لتقوية البرامج المحلية .

ونحن إذا قارنا هذه التكاليف الباهظة مع القصور فى كفاءة التشويش سنجد من العسير جدًّا علينا أن ننادى بوجاهة التشويش من الناحية الاقتصادية ، إذ ليس هناك فى الواقع من

طريق لمنع بعض الموجات من الوصول إلى المنطقة المستهدفة فالثابت أنه لا يمكن تغطية جميع الموجات بكفاءة تامة ، ولابد من تسرب بعضها إلى المستمعين ، أضف إلى ذلك أن لمشتغلين بالإذاعة يستطيعون التقليل بصورة جدية من آثار التشويش ، كما يستطيع المستمعون أنفسهم الحد من آثاره أيضاً ، فمن المعلوم أن الأسلوب الفنى المؤثر فى التشويش هو أسلوب التشبع عند نقطة الإرسال . . بمعنى وضع أعداد ضخمة من محطات الإرسال لتعمل على موجات متنوعة ، وقد حدث فى إحدى الحملات خلال الحرب الباردة وبالذات فى ٥ نوفمبر عام ١٩٥٨ أن رصدت محطة صوت أمريكا ٥٢ محطة تعمل على ثمانين ٨٠ تردداً لمدة ثمانى ساعات ضد الاتحاد السوفيتى ، لتهاجم قراره الخاص باستئناف الاختبارات الذرية ، ويقال إن نصف هذه الترددات تمكنت من الوصول إلى المنطقة المستهدفة ، وكانت واضحة تماماً ، وفى أزمة كوبا قامت أمريكا بنفس التركيز . وقد يقال إن كل الدول ليست فى غنى أمريكا ، ولا تستطيع أن تتبع سياسة التشبع فى محطات الإرسال ، ولكن يرد على هذا القول بأن هناك طرقاً أخرى ، منها زيادة قوة المحطة ، سواء عن طريق مضاعفة القوة الأصلية أو عن طريق العاكسات ، وقد اتبعت الإذاعة البريطانية هذه الطريقة فزادت من قوة محطاتها التشيكوسلوفاكية حتى بلغت ٥٠٠ كيلو وات عند غزو الاتحاد السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ،كذلك يمكن اختيار المكان المناسب لوضع محطة الإرسال بحيث يقلل من تأثير التشويش ، ومع ذلك فإن الإذاعة الألمانية نقلت محطات إرسالها إلى جهة Sines فى البرتغال لتحد من التشويش عليها فى الاتحاد السوفيتى ، فى حين تتبع إذاعة صوت أمريكا أسلوباً آخر ، فهى تحيط المنطقة المستهدفة بأجهزة الإرسال قدر الإمكان ، وتقوم بإذاعة نفس البرنامج فى نفس الوقت على جميع الأجهزة ، أضف إلى ذلك أن رجال الإذاعة يستخدمون أساليب أخرى لتطوير نوعية الصوت الإذاعى الذى يصل إلى المنطقة المستهدفة ، فهناك معدات كهربائية تسمى بالمقصات Clippers تزيد من قوة الصوت كما تزيد من حدته ، أى أنها ترفع الترددات العليا التى تؤثر فى سمع الإنسان ، كما يمكن اختيار المتحدثين على أساس نفاذ أصواتهم أكثر من حلاوتها ، ولنفس السبب أيضا يستخدم الإذاعيون الشفرة فى حالات الطوارئ للتغلب على أصوات التشويش المزعجة . ومن ذلك أن الإذاعة البريطانية كانت تذيع رسائلها بالشفرة كما أذاعت الأخبار فى الساعات الأولى من الصباح بالسرعة الإملائية مع تكرار كل كلمة حتى تصل واضحة إلى هؤلاء الذين يقومون بإعداد منشورات الأخبار ، ويتبع الصينيون

طريقاً آخر للتغلب على التشويش فى إذاعتهم الموجهة إلى روسيا ، ومن ذلك أنهم يعيدون إذاعة برامجهم كل أربع أو خمس دقائق ، ويسيرون على نفس المنوال مع استخدام السرعة الإملائية ست مرات فى الساعة الواحدة ، والأمريكيون لهم طريقتهم فى التغلب على التشويش وهى طريقة تتميز باختيار ترددات قريبة جداً من الترددات التى يذيع عليها الاتحاد السوفيتى برنامجه العام أو برامجه الداخلية ، بمعنى أنه إذا أطلقت صفارات أو إشارات كودية أو أية أصوات أخرى على هذه الموجات فإنها تؤثر بالتالى على موجات الروس القريبة منها ، وهذه الخدعة لم تصرف الروس عن التشويش على موجات الأمريكان برغم تأثيرها على برامجهم نفسها .

ومن المعلوم أن عملية تركيب موجة على موجة غير جائزة دولياً ، وإذا حدث ذلك فيكون أمراً شاذاً أو غير مقصود ، على الرغم من أن حيزات الترددات – خاصة فى أوربا – مزدحمة بالموجات بشكل تتداخل معه البرامج المحلية والبرامج الدولية على الموجة المتوسطة أو القصيرة ، مما يقلق القائمين على الاتحاد الدولى للاتصالات اللاسلكية ، وبهذه المناسبة نشير إلى أن الاتحاد بدأ فى تسجيل الترددات المعتمدة فى سجل عام منذ ١٩٦١ ، ولكن زيادة الطلب على الترددات « زاد بنسبة ٣٠ ٪ ما بين ١٩٦١ ، ١٩٧٣ » . . وقد فاق قدرة الاتحاد الدولى للاتصالات اللاسلكية تحديد ترددات جديدة للطالبين متباعدة أو على مسافات معقولة ، بحيث تمنع حدوث تداخل ، والمقصود من السجل الذى أشرت إليه أن يمنع حدوث فوضى كاملة فى توزيع الموجات ، ولكنه لا يمنع هبوط درجة وضوح الموجة بسبب ازدحام الموجات فى حيزات ضيقة ، ومثال ذلك أنه عندما بدأت المحطتان التجاريتان المعروفتان باسم إذاعة لندن وإذاعة كابيتال فى خريف ١٩٧٣ كانت درجة نقاوة الصوت فيهما على الموجات المتوسطة ضعيفة بعد الغروب ، بسبب وصول الموجات الأوربية وموجات التشويش الصادرة من شرق أوربا إلى إنجلترا عبر المانش ، وتداخلها مع الموجات المستخدمة فى هاتين الإذاعتين ، وحتى باستخدام موجات التشكيل الذبذبى فإنك لا تضمن خلو الموجة من تردد يعمل عليه البوليس أو إحدى الهيئات المماثلة ، وعلى العموم نشير إلى أن حالة الترددات على الموجة المتوسطة فى أوربا عموماً ميؤوس منها ، وأن درجة نقاوة الصوت ضعيفة للغاية .

لقد أشرنا إلى الطرق التى يستخدمها الإذاعيون أو المهندسون للتغلب على التداخل ، كما أشرنا إلى الحالات الميؤوس منها ، ولكن ما بال المستمع نفسه ؟ . . هل يستطيع المستمع أن ينتقل بجهاز استقباله بعيداً عن محطات التشويش إذا كان متعمدا ؟ أى أن يبتعد عن المدينة

حيث تساعد الموجات الأرضية المحلية على التشويش ويتجه إلى الريف ويا حبذا إذا أمكنه الانتقال إلى جهة بها مسطح مائى كبير.

هناك فى نفس الوقت بعض طرق لتحسين الاستقبال مثل استخدام عدد أكبر من المرشحات وأجهزة متابعة الموجة الأصلية مع استخدام أنتينات موجهة لاستقبال الموجة المطلوبة ، وقليل من المعرفة بالهندسة الإذاعية يؤدى إلى نتائج هامة فى تحديد نقطة التردد بالدقة على لوحة الموجات ، وبالتالى يمكن تقليل أثر التداخل . . وإذا استخدم المستمع جهازا يلتقط الموجات العالية فلابد فى أغلب الأحوال أن يجد موجة حرة لم يطلق عليها التشويش ، ليستخدمها فى معرفة ما تقوله المحطة المعادية ، أو لتسجيلة ، وحتى إذا فشلت جميع هذه المحاولات فإن المستمع المتحمس لمعرفة ما تقوله الإذاعة أيستطيع اذا كان يعرف لغة أخرى تذيع بها هذه الإذاعة أن يلتقط هذه الموجة ، ومن ثم يتغلب على التشويش ، إذ إن الدولة التى تأمر بالتشويش توجه عنايتها فى المقام الأول إلى اللغة التى ينطق بها أبناؤها وليس إلى اللغات الأجنبية التى تستخدمها المحطة المعادية ، والتى يجهلها غالبية السكان .

وقد تأتى لنا التطورات الفنية فى أجهزة الإرسال ببعض تطورات جديدة . أو قد تتطور صناعة أجهزة الإرسال التليفزيونية ، بل لا نبالغ عندما نقول إن الفنيين فى صناعة التليفزيون يتوقعون فى عام ١٩٨٥ تقريباً إرسال إشارات تليفزيونية عن طريق الأقمار الصناعية لتلتقطها مباشرة أجهزة التليفزيون المحلية بدون حاجة إلى محطات أرضية . ولقد تطور الإرسال التليفزيونى تطورا كبيرا فى الهند وكندا . . ويتوقع المهندسون استخدام قمر صناعى واحد لتغطية مساحة أية دولة مهما بلغت ويعمل هذا القمر كمحطة استقبال وإرسال لنقل الإشارة التليفزيونية والإذاعية . وسوف يحل هذا القمر فى موقعه البعيد عن الأرض محل مئات أجهزة النقل التليفزيونية المحلية والتوصيلات الأرضية العالية التكاليف ، مع إيصال هذه المحطات والتوصيلات بمصدر الإرسال اللاسلكى الرئيسى ، ويقولون إن من الممكن جداً استخدام الانتينات المصنوعة على هيئة الطبق ، والتى تستخدمها المحطات الأرضية مع شىء من التحرير لا لتقاط الإشارة من القمر الصناعى مباشرة إلى جهاز الاستقبال التليفزيونى فى المنزل . ولقد بدأ المهندسون فعلا فى صناعة انتينات مصغرة لاستخدامها فى استقبال الإشارات التليفزيونية فى إحدى المناطق ، ولا تحتاج هذه الانتينات إلى قوة كبيرة ، بل لا تحتاج إلى أكثر من كيلو وات واحد لمساحة مثل الجزر البريطانية ، ويقولون إن تكاليف الانتينات أو الهوائيات مع

المحولات اللازمة للاستقبال المباشر من القمر الصناعى إلى التليفزيون فى المنزل لن تزيد عن ٣٥٠ دولار ، أضف إلى ذلك أن هناك اتفاقية دولية بشأن الترددات التى تستخدم فى الإذاعات الدولية التليفزيونية ، ونحن إذا ما تجاوزنا عن الاعتبارات السياسية وجدنا أن العقبة الرئيسية فى وصول التليفزيون من محطة الإرسال الأجنبية هى فى تكاليف القمر الصناعى ، إذ يتكلف – سواء من ناحية صناعته أو دفعه إلى الأجواء العليا – حوالى ٣٠٠ مليون دولار .

وقد يكون من الأفضل بحث الموضوع من الناحية السياسية ، وفى ذلك نقول إن الروس تقدموا فى عام ١٩٧٢ بمشروع قرار إلى الأمم المتحدة يرمى إلى حذف جميع المواد التى قد تضر بالسلام الدولى ، أو التى قد تشجع على الحرب أو الكراهية العنصرية ، أو المواد التى تعتبر تدخلا فى شئون دولة أخرى ، أو التى تحط من معنويات وعقائد أو أخلاقيات الشعوب المستهدفة من جميع البرامج التليفزيونية التى ترسل عن طريق الأقمار الصناعية . ونص المشروع أيضا على إجراءات مضادة تأخذ صفة الشرعية فى القانون الدولى وتطبق على المخالفين ، وفوق هذا وذاك أكد المشروع الروسى على تحريم الإذاعات التليفزيونية المباشرة إلى الدول الأجنبية ، إلا إذا وافقت هذه الدول على هذه الإذاعات التليفزيونية المباشرة ، بمعنى إذا كانت الإشارة التليفزيونية تصل إلى عدد من الدول المجاورة فى منطقة ما وجب أن توافق جميعها على الإرسال التليفزيونى ، وليس من الغريب أن تطلق الدول الغربية على هذا المشروع اسم ميثاق التشويش وتعترض أمريكا على المشروع وتقول إن الأنسب ذكر عبارة الامتناع عن إذاعة المواد التى لا تتفق والسلام الدولى ، وأن فى التعميم ما يغنى عن بقية المشروع مع التأكيد على حرية انتقال المعلومات والأفكار ، وهكذا يصادف المشروع عقبة كئوداً بسبب اعتراض الأمريكان عليه ، على أن الوفد الروسى عمد إلى إحالة الموضوع إلى اللجنة الخاصة بالاستخدامات السلمية للفضاء الخارجى التابعة للأمم المتحدة ، ولقد قطعت اللجنة الأخيرة شوطاً لا بأس به بالنسبة للاستخدامات الخارجية للفضاء ، وقننت بعض المواد الخاصة بهذا الموضوع بعد أن أبدى الروس اهتماماً كبيراً يعرض وجهة نظرهم فى هذه المسألة الحيوية الدقيقة ، ولا سيما أنه من المستحيل على أية دولة الدخول فى حرب فضائية ، فالتدخل ضد وسائل الاتصال أمر سهل للغاية ولكنه مكلف ويعرض الدولة التى تتداخل إلى أنواع من الانتقام مشابهة .

والأمريكيون ينظرون من جانبهم إلى الإذاعات التليفزيونية الدولية على أنها امتداد للإذاعات اللاسلكية الدولية ، وهم يعتقدون بوجوب تطبيق نفس القواعد ، ولكنهم سوف

يضطرون فى النهاية إلى الاعتراف بوجاهة ما ينادى به الروس من ناحية وضع اتفاق دولى ينظم عملية الإرسال التليفزيونى عن طريق الأقمار الصناعية والأمريكان ويعتمدون على أن الإرسال التليفزيونى المباشر سيكون من الأمور التى سوف يرحب بها الاتحاد السوفيتى ، نظراً لأنه طريقة سهلة ورخيصة بالنسبة للدولة مثل الدولة السوفيتية الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف . إذ ستصل الإشارة التليفزيونية إلى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ، سواء المأهولة أو غير المأهولة ، وإذا عمد الروس إلى استخدام أجهزة استقبال تستطيع التقاط هذه الإشارات التليفزيونية من موسكو مباشرة يكونون قد فتحوا الباب أمام إشارات مماثلة من أية ناحية غير موسكو ، وحتى الآن لم يسو هذا الموضوع دوليا ، وقد يجد الروس فى التكنولوجيا الفضائية الحديثة ما ينقذهم من التدخل الأمريكانى عن طريق التفرقة بين الموجات المحلية والموجات الأجنبية الواردة من خارج الدولة ، ويرى البعض أنه من المحتمل جداً أمام النفقات الكبيرة للإرسال أن يعدل الأمريكان عن رأيهم ويفضلون إرسال موجات إذاعية صوتية ، ولكن يرى البعض الآخر أن الأمريكان قد يجربون إرسال هذه الموجات المكلفة على الرغم من وجود خطورة كبيرة تتمثل فى التشويش عليها أو ضرب القمر الصناعى نفسه ، وليس من المرجح أن تقدم أمريكا على مثل هذا العمل الذى قد يؤدى إلى تدمير الاتصال عن طريق الفضاء العلوى من أجل دعاية غير أكيدة ومكلفة ، ومن المضحك أن تصبح الدولة الرائدة فى استخدام الإذاعة الصوتية فى مجال الدعاية الدولية اليوم الضحية الأولى للإذاعات الدولية ، كما تصبح الدولة رقم ١ التى تهتم بالتشويش ، نعم لقد كانت النمسا أول دولة استخدمت التشويش فى عام ١٩٣٤ عندما حاولت حكومة دلفوس طمس الدعاية النازية التى كانت ترمى إلى ضم النمسا إلى الرايخ الألمانى وتعزيز الحزب النازى النمساوى .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن رومانيا فى عام ١٩٣٢ حاولت التشويش على الدعاية الروسية ولكنها فشلت فى ذلك ، ولكن سرعان ما انتشرت عمليات التشويش فى أواخر الثلاثينات عندما قام الطليان بالتشويش على إذاعة الحبشة وإذاعة لندن بالعربية ، كما قامت محطات الجمهوريين والوطنيين فى أسبانيا بالتشويش على بعضها بعضاً ، وما إن حلّت الحرب العالمية الثانية حتى كانت أطرافها تقوم بالتشويش كل على الآخر ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ التشويش مرة أخرى على الإذاعات الأسبانية والروسية ، ثم ازداد شدة بتطور الحرب الباردة ، وبدأ الروس يشوشون على صوت أمريكا فى عام ١٩٤٨ وعلى الإذاعة البريطانية فى

أبريل عام ١٩٤٩ ، وتفنن كل طرف من الأطراف فى طريقة طمس معالم إذاعة الطرف الآخر ، وقد دافع الروس عن عملية التشويش فقال وزير خارجيتهم إنه من بين الأسباب التى دعت الروس إلى التشويش هو أن الحكومة وجدت تجنيب الشعب الروسى – باسم السلام العالمى – مهاجمة الولايات المتحدة فى غضبه وثورته رداً على الإذاعة الأمريكية ، وقد تبعت دول أوربا الشرقية المثل الروسى وأخذت تشوش على صوت أمريكا والإذاعة البريطانية والإذاعة الألمانية ، وجميع الإذاعات التى تقوم بتمويلها وكالة الاستعلامات الأمريكية ، سواء فى ميونخ أو غيرها .

ونلاحظ أن عملية التشويش قد خفت بعض الشىء ومرت فى أربع مراحل ، وإن تكن قد اقتصرت على راديو الحرية وأوربا الحرة ، وهما يتبعان لوكالة الاستعلامات الأمريكية وعلى بعض محطات مناهضة للروس تعمل من قواعدهما فى الغرب ، وكانت المرحلة الأولى فى عام ١٩٥٦ ، واستمرت ستة أشهر ما بين زيارة خرشوف وبولجانين لبريطانيا والعدوان الثلاثى على السويس ، وثورة المجر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ ، وكانت المرحلة الثانية فى عام ١٩٦٠ عندما سعى رئيس الوزراء البريطانى هارولد ماكميلان لتخفيف التشويش ، وبالفعل تم له ذلك لولا حادث الطائرة يو ٢ التى كانت تقوم بالتجسس فوق الأراضى الروسية لصالح أمريكا ، ولم يلجأ الروس بعد هذا الحادث إلى التشويش الكامل بل اختاروا بعض فقرات من الإذاعات المناهضة للتشويش عليها أهمها الأخبار والتعليقات وهنا كانت المرحلة الثالثة . . والواقع أن الروس قد التزموا بالرد على هذه الإذاعات المعادية ، إذ سمحوا بحرية انتقال البرامج الغربية التى تتناول الحياة فى العالم الغربى خاصة الجوانب التى تقوم على انتقاد الحياة الغربية ، وهذه الطريقة قد جعلت المستمعين يتوقون إلى الاستماع للأجزاء المشوش عليها أكثر من ذى قبل ، ولما وجدت السلطات السوفيتية أن التشويش الجزئى لم يأت بنتيجة بل ساعد على انتشار الإشاعات قررت أن تلغى التشويش كلية فى صيف عام ١٩٦٣ ، وبذلك بدأت المرحلة الرابعة . . وبالفعل تم ذلك واستمر الوئام خمس سنوات حتى أغسطس عام ١٩٦٨ ، ثم عاد التشويش مرة أخرى بسبب تحريض الأمريكان التشيكوسلوفاكيين على الثورة ، فشمل التشويش صوت أمريكا والإذاعة البريطانية ، والإذاعة الألمانية ، إلى جانب راديو الحرية ، وأوربا الحرة ، وراديو بكين ، وعدد كبير من المحطات السرية الغربية ، ثم انضمت إلى هذه القائمة إذاعة قول إسرائيل التى حاولت إثارة اليهود الروس وحضهم على مغادرة البلاد ، ونلاحظ أن

التشويش الشيوعى لم يمتد إلى الإذاعة باللغة الروسية من فرنسا أو السويد أوكندا ، لأن لهجة هذه الإذاعات كانت معتدلة .

وانتهت فترة التشويش المشار إليها فى سبتمبر عام ١٩٧٣ كعلامة على حسن نية لروس بمناسبة بدء مؤتمر جنيف الخاص بالأمن الأوربى ، على أن هذه اللفتة الروسية لم تمتد إلى إذاعة الصين ، إذ استمرت الإذاعات الروسية فى التشويش عليها تشويشاً كاملا ، كذلك الإذاعات الروسية والبيديشية والبلغارية الصادرة من ألبانيا ، ولا تزال المساجلات الكلامية العنيفة مستمرة بين الصين وألبانيا من جهة ، وروسيا من جهة أخرى .

وفى يناير عام ١٩٧٤ بدأت إذاعة ألمانيا الغربية فى تقديم قراءات من كتاب Alexander Salzhenitsyn المعروف باسم خليج كولاج ، فعاد التشويش على هذه الإذ عة . . كذلك بدأت كوبا تشوش على الإذاعات الشيلية فى عام ١٩٧٣ بعد الانقلاب الذى وقع ضد الرئيس اللندى ويبدو أن عملية التشويش الكوبية قد تناولت البرامج المحلية الشيلية ، أما عملية التشويش على قول إسرائيل فإن الروس عمدوا إلى تخفيف التشويش أو زيادته أو جعله مستمرا أو منقطعاً وفق الظروف السياسية مع إسرائيل ، فأحياناً نجدهم يسمحون بوصول صوت صهيون إلى بعض مناطق الاتحاد السوفيتى حيث يريدون تشجيع هجرة اليهود عن هذه المناطق .

وفى السنوات العشر الأخيرة أو أكثر بدأت دول أوربا الشرقية تضع لنفسها سياسة مستقلة ، ومن ذلك أن رومانيا أوقفت التشويش كلية فى عام ١٩٦٣ ، ثم تبعتها المجر فى السنة التالية ، ثم أوقف البولانديون التشويش فى عام ١٩٦٥ ، أما البلغار فكانوا يقتفون دائماً آثار الروس ، فهم يوقفون التشويش إذا أوقفه الروس ، وليس معنى ذلك أن دول أوربا الشرقية أو حتى الاتحاد السوفيتى قد تردد فى إعادة التشويش إذا ما تطلب الموقف السياسى ذلك ، والواقع أن السماح بوصول موجات الدول الغربية بدون تشويش يعتبر بارومتراً أكيداً للعلاقات بين الروس والغرب ، ولسوف يستمر التشويش مقياساً لهذه العلاقات السياسية مدة طويلة فى المستقبل ، والتشويش ليس مقصوراً على الدول الشيوعية ، إذ نرى حكومة روديسيا السابقة تشوش على بعض فقرات إذاعات فرانسيستاون Francis Town التى كانت تقع على بعد ثمانى كيلو مترات من الحدود الروديسية ، وهذا من الأسباب التى دعت بريطانيا إلى إغلاق المحطة وتسليمها إلى بوتسوانا فى عام ١٩٦٨ كذلك استمرت حكومة أسبانيا فى التشويش على محطة

إذاعة أسبانيا المستقلة وإذاعة الباسك المعروفة (Euskadi) وأشارت مجلة الإوكوتوميست إلى أن الحكومة اليونانية حاولت أيضا التشويش على الإذاعات اليونانية الصادرة من ألمانيا الغربية ، كما حاولت إسرائيل التشويش على إذاعات القاهرة فى حرب أكتوبر الماضية ، وفى أمريكا اللاتينية ظهرت حكومة شيلى بمظهر المعارضة الكاملة للشيوعيين ، وأخذت فى التشويش على إذاعتهم حتى الإذاعة السويدية اليسارية .

وهناك عدد لا يحصر من الإذاعات السرية التى تتعرض للتشويش فى مختلف أنحاء العالم ، ونلاحظ أن إذاعة القاهرة تملك قدرات فائقة لعملية التشويش ولكنها لم تلجأ إليه بشكل شامل ، فى حين حاول البريطانيون التشويش على إذاعة أثينا الموجهة إلى قبرص فى عام ١٩٥٦ ، كما حاول الفرنسيون التشويش على إذاعة راديو الجزائر الحرة ، كذلك لجأ الأمريكيون إلى التشويش على بعض الاذاعات من أجل أهداف تكتيكية ، كما حاولوا مده إلى إذاعات أخرى .

وإذا كان التشويش غير مؤثر فى جميع الأحيان ، وإذا كانت تكلفته باهظة وإذا كان دليلا على الجبن والاستبداد فلنا أن نتساءل : لماذا استمر التشويش طوال هذه الفترة ؟ ولماذا يستمر فى بعض الحالات ، لقد أعلن البولنديون فى عام ١٩٥٦ أن التشويش وسيلة عقيمة لم تجلب لهم سوى العار ، وأن عملية إيقافه نصر لمبدأ تدفق الأنباء ، وأن محاربة التشويش يجب أن تكون عن طريق الحجج الواقعية . . أضف إلى ذلك أن إيقاف التشويش يوفّر من القوى الكهربائية ما يكفى عدة آلاف من الأفراد ، بل أشار أحد المهندسين البولنديين إلى أنه تنفس الصعداء عندما انتهت عملية التشويش ، واستطاع زملاؤه أن يرفعوا قامتهم بعد أن انتهت هذه العملية غير الأخلاقية ، على أن هذا الرأى لا يتفق مع كل الدول ، فهناك الروس والإسرائيليون الذين يعتنقون رأياً آخر ، فالروس يعتقدون بأن الدعاية الأجنبية لا تمثل فحسب تدخلا من جانب الأجانب فى شئونهم الداخلية ، بل يرون أنها غير شرعية وخطرة ، ويحتجون بأنهم إذا ما استخدموا وسيلة غير شرعية فذلك لمحاربة عمل غير شرعى ، وهذه الحجة تبدو وكأنها دفاع عن التشويش ، خاصة إذا ما تذكرنا تاريخ الإذاعة السوفيتية الذى بدأ قبل الحرب العالمية الأولى ، والذى استغل التقدم الفنى فى روسيا فانطلقت محطات إرسالها ضد رومانيا فى عام ١٩٢٦ ودعايتها الشاملة ضد ألمانيا فى عام ١٩٣٠ كما يعتبر الاتحاد السوفيتى فى الوقت الحاضر ثانى دولة فى العالم يذيع برامج دولية بعد الولايات المتحدة إذا ما أخذنا فى

الاعتبار المحطات الرمادية والسوداء الصادرة عن وكالة الاستعلامات الأمريكية

والواقع أن مسألة التشويش بأكمله مسألة مشكوك فيها من الناحية القانونية ومن الناحية الأكاديمية بل من الناحية الدعائية .

ولقد وافقت الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٠ على أن من حق كل فرد أن يتلقى ما يريد من معلومات ، وقد صدر هذا القرار فى أوج الحرب الباردة عندما بدأت إذاعة أوربا الحرة فى دعايتها الهدامة ، وعندما بدأت الاستعلامات الأمريكية تنشط نشاطها الشامل وعندما شرعت أمريكا فى الحرب الكورية ، ولقد أسموا هذه العملية بالسياسة الواقعية أى أنهم لم يصفوها بالشرعية ومن ثم لا نعجب إذا أشار مندوب يوغسلافيا فى الأمم المتحدة إلى أنه لا يمكن الفصل بين الإعلام والسياسة مردداً مبدأً اساسيا من مبادىء الماركسية اللينية ، فقد قال : « اليوم لا توجد أنباء محايدة ولا يوجد إعلام محايد ، فأوربا بجانبيها تعلم حقيقة ذلك ، وكان الأمريكيون فى ذلك الحين يهتمون كل الاهتمام بعرض مشروعات قرارات تظهر الروس فى أسوأ مظهر ، ثم تستغل هذه القرارات فى أغراض الدعاية وكانوا يدركون كل الإدراك أن من المستحيل عليهم البرهنة على أن الدعاية الموجهة إلى الشيوعيين لا تبلغ مبلغ التدخل ، أو لا تبلغ مبلغ استخدام القوة ضد دولة مستقلة ، أو لا تمثل التحريض على الأعمال الإجرامية والهدامة ، وإذا ما أراد الإنسان أن يجعل الاعتداء أو العدوان عملا غير شرعى كان ذلك جميلا وعظيماً منه ، بشرط أن يقره كل إنسان على وجه الأرض .

وكان الروس يستخدمون التشويش ضد إذاعات الغرب ، وما كانوا يأبهون بالمعارضة ، الأمر الذى جعل الدول الغربية تشحذ أسلحتها الدعائية ضد الاتحاد السوفيتى الذى حض العمال الإنجليز عام ١٩٢٠ على الثورة ، الأمر الذى أثار الكثير من الاحتجاج فى مجلس العموم ، على الرغم من أن الموجة الروسية لم تكن مسموعة أو واضحة فى بريطانيا ، وبالتالى تلاشت هذه الاحتجاجات من تلقاء نفسها ، وبالنسبة للدول الغربية نشير إلى أن عدد المستمعين فيها للإذاعات الشيوعية لم يبلغ حداً يثير قلق حكومتها ، ومن ثم لم تلجأ الحكومات الغربية إلى عملية التشويش الكلية فى غالبية الأحيان ، الأمر الذى جعلها تلح دائماً على عدم شرعية التشويش الروسى ، ثم تزيد على الحجج السابقة بإضافة حجج جديدة مثل ضعف موقف الاتحاد السوفيتى وعدم ثقته فى أن الشعب الروسى قادر من تلقاء نفسه على رفض الدعاية المناهضة للشيوعية .

ووجهة النظر الغربية فى الدعاية بسيطة ، بل قصد منها أن تكون فى غاية البساطة تنفيذاً للمبدأ القائل : « كلما سهلت الشعارات كانت أدعى إلى التصديق » فى حين أن الكيان الكلى لقوة الدعاية السوفيتية يعتمد على قدرة المهيمنين من الشيوعيين على اتخاذ قرارات لا تكون محط جدل أو معارضة فى حدود اختصاصهم ، ولا ينصرف ذلك إلى النواحى السياسية فقط ، بل يمتد إلى الشئون الاقتصادية . . والقرار عادة يكون بالإجماع ، ومنذ عام ١٩١٧ أخذ الاتحاد السوفيتى يحارب ضد اضداد كبيرة لم تواجهها دولة غربية ومن بين هذه الاضداد الطعنات الذاتية التى تسبب فيها ستالين والمشايعون له ، ومهما يكن من حجج مناهضة فإن القاعدة الرئيسية للتفكير السوفيتى واحدة فهم يرون أن الدعاية المناهضة هى تهديد للكيان السوفيتى أكثر منها دعاية للحياة الغربية وأسلوب الحكم الغربى ، خاصة أن الدعاية تعتمد على الوهم بوجود عناصر معارضة متعددة . . ومن ناحية الغرب نجدهم يسمحون بانتقال الدعاية الأجنبية إلى بلادهم كجزء من الإيحاء بوجود حرية سياسية ، ولكننا نلاحظ أن هذا السماح بالمعارضة هو جزئى ، وبالنسبة للدول الواقعة بين برلين وفيلاديفسك نجد الوضع معكوساً فما يعتبر فى الغرب حقًّا من حقوق الإنسان يراه الجانب الآخر دعوى غير مسئولة لنشر الفوضى ، ولقد أشار تقرير لجنة ألفت برئاسة الجمهورية الأمريكية لدراسة الإذاعات الدولية إلى أن الجهل والفقر يسهمان إلى حد كبير جداً فى حرمان كثير من الناس من مزاولة حقهم فى المعرفة ، ولكن هناك أناس آخرون سلبتهم هذا الحق حكوماتهم نتيجة قرارات وأفعال صارمة ، إذ هى تعتقد بأن التدفق الحر للمعلومات والأخبار والأفكار بين الناس قد يؤدى إلى نقد أعمال الحكومة ، وإلى المطالبة بإصلاحات داخلية قد تمس الأشخاص ، أو المؤسسات .

وقد نسى هذا التقرير القسم الثانى من المعادلة ، فالروس مثلا يدعون بأن فرض قيود على تدفق المعلومات إنما يهدف إلى تمكين الدولة من الخروج من دائرة مفرغة قوامها الجهل والفقر تحيط بها منذ تاريخها القديم ، والمناداة بالإصلاح الداخلى بالنسبة لهذه الحكومات هو الوصفة الفعالة لتحقيق كل تقدم حتى الآن ، هذا التقدم الذى أعاقه التدخل الأجنبى سواء كان على هيئة تدخل عسكرى أو غير ذلك .

والواقع أن الاتحاد السوفيتى يثق ثقة كبيرة فى قدرته على الصمود أمام الضغط الخارجى كما أن روح الوفاق الجديدة قد جعلت من الممكن إيقاف عملية التشويش على غالبية المحطات ولمدة أطول فى المستقبل ممكنة .

ويرى الروس بعد أن مر جيلان على أحداث بولندا أن ليس من الضرورى الإصرار على فرض رقابة صارمة على الإذاعات الصادرة باللغة البولندية . . ولا يعنى ذلك الإذاعات السرية السوداء أو الرمادية مثل راديو الحرية ، أو راديو أوربا الحرة . . وهذا يؤكد الفرق بين نوع الصبر السوفيتى على الإذاعات الرسمية المضادة ونوع صبرهم على إذاعات أخرى مثل راديو الحرية أو راديو بكين ، والمشكلة مع راديو الحرية وراديو أوربا الحرة أنهما يبغيان الهدم ، بل يذيعان أشياء غير معقولة ويطلق عليهما الروس اسم الإذعات الهدامة ، ولا تزال وظيفتهما كما هى على الرغم من أن تمويل هاتين الإذاعتين قد انتقل من وكالة المخابرات الأمريكية إلى وزارة المالية الأمريكية ، أى من التمويل السرى إلى التمويل العلنى .

والنقطة الهامة هى أن الاتحاد السوفيتى يرغب رغبة أكيدة فى تحريم الحرب الإذاعية ، بل يرغب فى أية تسوية تكون نتيجتها غلق هاتين المحطتين ، والغرب يدرك هذه الرغبة القوية ، ولهذا يحاول أن يستخلص أكبر ما يمكن استخلاصه من مزايا باللعب بهذه الورقة ، فهى ورقة رابحة يستخدمها الأمريكان فى المفاوضات مع الروس ، ولكن لابد فى النهاية أن يوافق الأمريكان على غلق هاتين المحطتين . ويمكن القول فى الوقت الحاضر أنهما سيعملان ، وأن الروس سوف يستمرون فى التشويش عليهما ، وحتى إذا وصل الاتحاد السوفيتى والدول الغربية إلى اتفاق تام بشأن إيقاف التشويش على جميع المحطات الغربية فإن الروس لن يوقفوا التشويش على محطات الصين باللغة الروسية ، فهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الاتحاد السوفيتى يخشى من حملات الشيوعيين اليساريين فى الصين أكثر من حملات الدول الغربية ، فالخلاف بين اليساريين يتميز بمرارة وعمق أكثر من الخلاف بين المبادىء السياسية المتعارضة ، ولهذا نجد عملية التشويش بين الاتحاد السوفيتى والصين والعكس قائمة على قدم وساق .

وقد وصلت الحملة السوفيتية الصينية إلى درجة تستدعى التبصر ، فكل منهما يسترشد بالقانون الدولى لنقد أو تأييد عملية التشويش ، وكل منهما يعلم أن جهوده فى التشويش ليست فعالة تماماً ، بل هى مكلفة أكثر ، وهناك نقطة لابد من الإشارة إليها وهى أن الروس لم يمنعوا فى عملية التشويش هذا الإمعان منذ الحرب العالمية الثانية إلا بسبب إدراكهم أن التدخل الغربى فى شئونهم الداخلية سوف يؤثر على نظامهم الداخلى ، بمعنى أنهم كانوا يدركون أن استخدام التشويش كان من أجل إنقاذ الاشتراكية ، ذلك لأنهم لا يخاطرون أبداً مهما كانت هذه المخاطرة صغيرة بالتغاضى عن أى تهديد لنظام يعتقدون بأنه النظام الوحيد الذى يقودهم

فى النهاية إلى الوفرة والرخاء وما إلى ذلك . . وفى العهد الأخير بدءوا يعتقدون أنهم فعلا فى طريقهم إلى الرخاء والوفرة ، أما عن علاقتهم بالصين فيتضح أنهم مازالوا يعتقدون بأن هناك خطراً من تسرب الإذاعات الصينية إلى الاتحاد السوفيتى ، ولهذا سوف يستمرون فى التشويش على محطات إذاعة بكين .

الفصل الرابع

الاستماع

أذاع راديو كوردستان نداءً موجهاً من الجنرال برزانى إلى الأمم المتحدة، كما أعلن راديو أوغندا أنه من المنتظر إعلان بيان هام بين دقيقة وأخرى. وتشير التقارير إلى أن الانقلاب الذى حدث فى اليونان قد فشل ومع ذلك لا يزال راديو أثينا يلعب المارشات العسكرية.

قطعت خطوط المواصلات مع سانت ياجو ومع ذلك تشير الإذاعة إلى أن . . . . . .

كثيراً ما تتردد مثل هذه العبارات على موجات الأثير وفى تقارير وكالات الأنباء والمستمع فى غالبية الظروف لا يعلم كيف وصل هذا النبأ، ولكنَّ محررى الأخبار يعرفون جيداً أن هذه الأخبار قد التقطتها أجهزة الاستماع العاملة مع إذاعاتهم أو التابعة لهم ثم طيروها إلى جميع الجهات المعنية عن طريق المبرقات . . لقد بدأت الحكومات تُنشئ أجهزة « تصنت » مع بداية ظهور الإذاعات الدولية لمعرفة ما تقوله هذه الإذاعات ، وكأى شىء آخر بدأت هذه الأجهزة بداية متواضعة . . فمثلا الإذاعة البريطانية قبل حملة إيطاليا الإعلامية على الحكومة البريطانية باللغة العربية (والتى كانت ترمى من ورائها إلى إطلاع العرب على دور البريطانيين فى خلق دولة إسرائيلية صهيونية بفلسطين) بدأت « تتصنت » بطريقة منتظمة على الإذاعة الإيطالية لتعرف كيف يصور الطليان « أيادى بريطانيا الجليلة » على شعوب الشرق الأوسط . وكان ذلك فى عام ١٩٣٩ . .

أما الأمريكيون فكانوا أبطأ من الإنجليز وأقل كفاءة ولم يهتموا إلاّ بتوفير أكثر الأجهزة ضرورة « للتصنت » على أعدائهم ، على الرغم من جهود بريطانيا وألمانيا فى محاولة استمالة الشعب الأمريكى أو فى حفزه على البقاء محايدا وعدم دخول الحرب .

وقد بدأ الاستماع الأمريكى أول ما بدأ بمركز برينستون Preinceton وكان يتصنت على الإذاعات الأوربية ، وبعد فترة من الزمن عهد إلى جامعة استانفورد بعملية التصنت ، وبعد أن بدأت الحرب العالمية الثانية بدأت الحكومة البريطانية تقيم خدمة كاملة لعمليات التصنت والاستماع للإذاعات الأجنبية .

وفى ألمانيا كان الاستماع أكثر حظًا إذ اهتمت به الحكومة أشد اهتمام ، لأسباب أخرى تتمثل فى تكوين نادٍ أطلقوا عليه اسم نادى المخربين ويضم عدداً من المتصتين الألمان ، ويبدو أن هؤلاء الموظفين كانوا يتباهون أمام غيرهم من افراد الشعب والموظفين بمعرفة الأخبار الباطنة فكانوا يروجون ما يسمعون من محطات الأعداء ، وفى يناير عام ١٩٤٢ اكتشف جوبلز أن أصل بعض الإشاعات التى سرت فى ألمانيا والتى كانت تدعو إلى الهزيمة وتناقلها المسئولون الكبار . كانت من تداول تقارير المخربين ، وقد أشار فى مفكراته عدة مرات إلى أنه حاول مراراً قصر تداول تقارير الاستماع على أقل عدد ممكن ، لأنها كانت تحتوى على مواد مخربة ، بل اتخذ جوبلز إجراءات عنيفة فى قصر توزيع التقارير بل منعها إلا عن عدد يعد على أصابع اليد من الموظفين وأمر بوجوب حصول الجهة الطالبة على تصريح خاص منه يسمح بإرسال التقارير إليها مثل المراسلين الأجانب الذين كانوا يطالبون بالحصول على ما تذيعه المصادر الأجنبية لكتابة تقاريرهم .

على أن جوبلز لم ينجح فى محاولاته ، إذ يبدو أن تقارير الاستماع للمحطات المعادية كانت تتسرب بطريقة أو أخرى إلى جميع مصالح الدولة والقوات المسلحة .

ولقد تطورت عملية التصنت فأصبحت فى أيامنا الراهنة عملا تعاونيا بين البريطانيين والأمريكان والألمان ،وراحوا فيما بينهم يستمعون إلى جميع إذاعات العالم فيما عدا بعض محطات لسبب فنى ومثال ذلك أن الإذاعة البريطانية لأسباب فنية لا تستطيع أن تغطى وسط أفريقيا وشبه الجزيرة العربية وحتى إذا ما استطاعت أن تفعل ذلك فإن الموظفين المكلفين بالاستماع لا يستطيعون التصنت طوال الوقت ، لأن مرتبات هؤلاء الموظفين تصل إلى ملايين الجنيهات إذا ما طلب إليهم الاستماع إلى كل كلمة ، وإلى كل برنامج يصدر عن كل محطة ، ومن ثم فهم يستمعون إلى بعض فقرات مختارة من الاذاعة محط الملاحظة ، وحتى هذه الفقرات لا يدونون ما يقال فيها كلمة كلمة ، بل يكتفون بتسجيلها ثم يدونون ما يرونه منها ، فتدوين كل شىء أمر لا ضرورة له ، خاصة إذا لم تكن له قيمة سياسية ، وحتى الأخبار السياسية المعادة لا يدونونها

بالكامل بل يشيرون إلى وقت إذاعتها الأصلى مع إضافة الفقرات الجديدة إذا وجدت ، وقد حاولت الإذاعة البريطانية أن تدرس فاعلية مد عملية التصنت إلى التليفزيون ولكنها وجدت أن التليفزيون كمصدر من مصادر الأخبار لا يعادل الإذاعة فى سرعتها وشمولها إلى جانب الكثير من الموانع الفنية ، وإدارة « التصنت » بالإذاعة البريطانية تسكن قصراً قديما من قصور القرن التاسع عشر حولوه إلى مقر للاستماع ، ويقع فى مزرعة كبيرة بعيدا عن المؤثرات الإلكترونية وغيرها ، مما قد يشوش على الاستماع ، وهذا القصر بمساحاته الكبيرة من الأراضى الزراعية يقع بالقرب من مدينة ريدنج وعلى بعد ٤٠ ميلا من لندن ، ويسمى قصر حديقة كافرشام ، وبه الآن نحو ٤٠٠ موظف ، فى حين كان عددهم فى نهاية الحرب العالمية الماضية خمسمائة وخمسين موظفاً يقومون بتدوين ما يزيد على مائة ألف كلمة فى اليوم ترسل إلى المصالح الحكومية ومحررى الأخبار والأقسام السياسية فى الكليات ، كما ترسل إلى كل من يطلبها فى مقابل رسوم مقررة . . والواقع أن أجهزة المخابرات فى العالم تعتمد على تقارير الاستماع كما كانت تفعل فى أيام الحرب العالمية الماضية .

وفى أمريكا توجد مصلحة اسمها مصلحة الإعلام الإذاعى الأجنبية ، وهى مسئولة عن عملية الاستماع ، وتتبع وكالة الاستعلامات الأمريكية ، وتختلف عن الإذاعة البريطانية فى أنها لا توزع تقاريرها ، بل تحتفظ بها ، نظراً لتبعيتها للمخابرات ، ولكنها فى نفس الوقت تتبادل التقارير مع الإذاعتين البريطانية والألمانية . . وهذه الأجهزة الثلاثة تدون كل شىء يصدر عن أجهزة الإعلام فى العالم بأسره ، ثم تقوم بنقله إلى بعضها البعض بمجرد إذاعاته ورصده . . أضف إلى ذلك أن الإذاعة البريطانية ومصلحة الإعلام الإذاعى الأمريكية تتلقى الأوامر من الحكومتين : الإنجليزية والأمريكية ، بشأن المحطات التى يجب الاستماع إليها ، كما يتشاوران مع ألمانيا فى تحديد أوقات الاستماع لكل جهة ، ذلك بالإضافة إلى أقسام مصغرة للاستماع توجد فى سفارات هذه الدول تقوم بالتصنت على موجاتها المحلية .

وهناك محطات أخرى تقوم بعملية الاستماع لأغراضها الخاصة ومنها محطة أوربا الحرة وراديو الحرية ، اللتان يتصتان على المحطات المحلية والإقليمية فى دول أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى ، ويعتمدان على الأخبار التى ترد إليهما عن طريق التصنت فى تدعيم دعايتهما الهدامة لأوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى ، أى أنهما يعيدان تصدير الأخبار المحلية البحتة بعد تحريرها تحريراً جديداً ينم عن رغبتهما فى الإضرار بنظم الحكم القائمة فى أوربا الشرقية والاتحاد

السوفيتى ، كذلك تقوم المحطتان المذكورتان بإعداد تقارير خاصة عن اتجاه الرأى العام فى المناطق المستهدفة ومن جانب روسيا ودول أوربا الشرقية نجدها تقوم بنفس عمليات التصنت على جميع الإذاعات وعلى مجموعة كبيرة من البرامج المحلية والأجنبية .

وغالبية الحكومات تقوم بعملية « التصنت » إما عن طريق أجهزة المخابرات العامة أو الاستعلامات أو الإذاعة ، كما تقوم سفاراتها إينما كانت « بالتصنت » على البرامج المحلية لتقييم الاتجاهات السياسية للدول المضيفة .

وقد اقترح الرئيس إيزنهاور فى عام ١٩٥٨ على الأمم المتحدة أن تستوثق من سياسة كل دولة ، وتقوم بتدوين الإذاعات الصادرة من دول الشرق الأوسط ، ثم تفحص شكاوى هذه الدول من بعضها البعض ، خاصة تلك التى تدعى أن أمنها الداخلى فى خطر نتيجة إذاعات خارجية ، ولكن الأمم المتحدة لم تفعل شيئاً من هذا ، وقد يكون من المفيد أن تقوم الأمم المتحدة أو غيرها من الهيئات الدولية بعرض الأمثلة والنماذج الصارخة للدعاية الهدامة أمام الرأى العام العالمى ، فالحكومات عادة ما تنفى عن نفسها تهمة إذاعة مواد بذيئة أو دعاية هدامة . . ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نتصور الدور الذى قد تقوم به الأمم المتحدة أكثر من تسجيل هذه الإذاعات وعرض الحالات الفاضحة ومن أجل ذلك يجب أن تسوى عدة مسائل :

أولا : هل الدعاية الدولية عمل شرعى أو لا ؟ بمعنى هل يحق لأية دولة أن توجه دعايتها عبر حدود دولة أخرى لتهاجم نظام الحكم فيها . .

ثانياً : قد يؤدى تدخل الأمم المتحدة إلى إثارة عش الزنابير . . بمعنى أن تتجه كل دولة إلى اتهام الأخرى . . أو أن تلقى باتهامات مضادة . .

ثالثاً : يؤدى التسجيل عن طريق الأمم المتحدة إلى إثارة المشاكل أكثر من تهدئة المواقف المتوترة ، وفى ذلك نقول إن الدولة الضحية سوف تستشهد بالبيانات العدوانية فى إذاعات الدولة محط الشكوى ، والدولة أو الدول التى تسندها ، وفى هذه الحالة لن تخرج المناقشات عن دائرتها العقيمة غير المنتجة وربما لا تشعر دولة من الدول أن من الملائم فى مثل هذه الحالة أن تحاول تهدئة الأمور بين دولة وأخرى .

وتتميز عملية الاستماع بالسرعة الفائقة ، إذ قد يأتى شاهد عيان يصف انقلاباً أو حرباً أهلية ، أو قد تعلن إذاعة من الإذاعات عن انقلاب عسكرى وليس هناك من سبيل لتأكيد

هذه الأخبار ولا طريقة لمعرفة تطورها إلاّ عن طريق الإذاعة نفسها أو من مصادر غيرها ، فمثلا اندلاع القتال فى قبرص فى صيف عام ١٩٧٤ أتى أولا عن طريق الإذاعة . . والعاملون فى الاستماع مدربون تدريباً خاصًا بحيث إنهم إذا استمعوا إلى خبر غير متوقع فإنهم يطيرونه فى الحال إلى الجهات المسئولة بعد أن يقيدوه كلمة كلمة ثم يترجمونه ، وفى الحال يقيّمون ما ورد به ويرسلونه عن طريق المبرقات إلى الجهات المختصة ، وربما لا يستغرق ذلك كله أكثر من دقيقتين . . وبعد مضى بضع دقائق يرسل الخبر كاملا إلى آلاف الجهات الأخرى والمصالح الحكومية ، ثم يتابعون الخبر بإرسال التفاصيل كلما جدَّ جديد .

ولما كانت الإذاعة فى حد ذاتها وسيلة سريعة ومستمرة ، أى لا تتوقف فى عملها فهى تأتى فى مقدمة وسائل الاتصال الخبرية ، وإن يكن فى بعض الأحيان لا تذاع الأخبار إلاّ بعد أن تمر على الرقيب . . الأمر الذى قد يؤخر إذاعتها ، وقد حدث مثلا أن إذاعة موسكو أذاعت صورة كاملة لما حدث فى باكستان الشرقية عندما أهين أحد الزعماء الشيوعيين ، وحدث بعد ذلك أن رأت السلطات السوفيتية العليا أن إذاعة الخبر فيه إهانة فأمرت بألاّ يُذاع كاملا بل مقتضبا ومقصوراً على بعض فقرات ، ولكن سبق السيف العذل .

ومن الناحية الروتينية نلاحظ أن رؤساء أقسام الأخبار فى المحطات الكبيرة يستخدمون الإذاعات الدولية كمقياس سريع على تأثير إنتاجهم وكمصدر من مصادر الأخبار ، أو كما قال أحد الصحفيين المجربين : « عندما تحاول أجهزة الاستماع « التصنت » على المحطات الأجنبية لالتقاط أنباء طازجة تقوم فى نفس الوقت بعملية دفاع ذاتى على هيئة التعرف على فحوى الأنباء الرئيسية الصادرة عن هذه المحطات ، وهذا أمر هام ، إذ هو يخدم محررينا من ناحية إعداد البرامج الاخبارية . . بمعنى أن المحرر عند تحريره الأخبار يصيغها فى القالب الذى يلائم المستمعين ، كما يخبره عن طريق المحطة التى « تصنت » عليها ، وعرف كيفية صياغته ، والعناصر التى يحتويها وأولوياتها » .

والعاملون فى مراكز الاستماع يشيرون إلى أمجاد حققوها فمثلا فى الساعة ١٤٠٤ بتوقيت جرينتش يوم ٢٨ أكتوبر عام ١٩٦٢ أذاع البرنامج المحلى الروسى نبأ قرار خرشوف بسحب الصواريخ الروسية من كوبا ، وبالتالى أنهى بطريقة فعالة خطر قيام حرب ذرية ، وبعد تلقى الخبر بدقيقتين كان قد وصل إلى وكالة الاستعلامات الأمريكية فى واشنطن ، ومنها إلى البيت

الأبيض ، فشعر كيندى فى الحال بانتهاء الأزمة ، وإنْ يكن قد أعلن بأنه لم يتلقَ الخبر بعد بصفة رسمية .

وحدث موقف مشابه قبل ذلك بسنوات عديدة عندما أعلنت إيطاليا الحرب ، فقد أذاع موسليني بيانه قبل الموعد المحدد له بربع ساعة على البرنامج المحلى فالتقطته محطات الاستماع فى بريطانيا وأذاعته محطاتها فى الحال ، بما فى ذلك الإذاعة باللغة الألمانية ، ومن ثم كان لها السبق الإذاعى على محطات العالم بما فى ذلك ألمانيا ، وهناك حادث آخر هو صدور إعلان جوبلز بتسليم الألمان فى مايو ١٩٤٥ . . من إذاعة لندن .

وفى عام ١٩٧٠ عند وقوع الاضطرابات البولندية سجلت محطة أوربا الحرة بعض النجاح (ليس عن طريق السرعة فى رد الفعل) بل بسبب « التصنت » فمن المعروف أن بولندا كانت تخضع لرقابة صارمة على الأخبار خاصة فيما يجرى فى المدن الواقعة على بحر البلطيق ، ولكن حدث أن محطة ضعيفة أشارت إلى الاضطرابات فالتقطتها أجهزة الاستماع فى أوربا الحرة وأذاعتها بالبولندية ، وكان الخبر محليًا فى حد ذاته ولم يسمع به البولنديون أنفسهم ، وإذا كانت السرعة فى نقل الخبر من سمات أجهزة الاستماع فإن تلخيصاتها اليومية لا تقل أهمية . . والواقع أن اختيارها للأحداث عند التلخيص سواء المحلية أو الأجنبية توفر للقارئ صورة كاملة مسبقة للأحداث فى الدولة الأجنبية . . وفى أوقات الحرب تقوم أجهزة الاستماع بمد المخابرات بالمعلومات التى يمكن عن طريقها تقييم حركات العدو المستقبلة . . ومثال ذلك أنه حدث عن طريق تحليل الأخبار فى صيف عام ١٩٤٢ أن توقع المسئولون فى بريطانيا أن ألمانيا ستقوم بغزو الاتحاد السوفيتى ، والأصل فى ذلك أن محطات الإذاعة الألمانية أخذت فى خرق الهدنة الإعلامية بينها وبين الاتحاد السوفيتى .

وسواء فى الحرب او السلم تقوم أجهزة الاستماع بتوفير الأخبار للسلطات الحكومية عن الدول الأجنبية وعما يقوله المراسلون الأجانب العاملون فى الدولة نفسها ، وكثيراً ما طُرِد المراسلون بسبب إرسالهم رسائل عدائية للخارج وأذاعتها محطاتهم الأجنبية ، وبالتالى التقطها قسم الاستماع فى الإذاعة حيث يوجد المراسل ، ومثال ذلك طرد مراسل الأوبزيرفر من مصر ، وطرد مراسل الإذاعة البريطانية من طهران فى عام ١٩٧٣ .

ومن هذا نجد أن للاستماع وظيفة هامة للغاية ودقيقة ، تتعلق بالمخابرات ، وبالتالى لابد من الحرص الشديد عند إبلاغ الأخبار ، وهنا نشير إلى أن ظروف استقبال الأخبار ليست

بالنموذجية ، فقد يحدث تداخل ، وإذا لجأ قسم الاستماع إلى عملية المراجعة أضاع وقتاً ثميناً ، ولكن على القائمين بأمر الاستماع أن يتخذوا قراراتهم فى الحال بغض النظر عن سوء الاستقبال .

حدث فى عام ١٩٧٢ أن تلقى مركز الاستماع الامريكى التقارير الأولى عن الانقلاب فى بوليفيا من ثلاث محطات وكانت التقارير متضاربة فى نصوصها ، وكان على المحررين أن يستخرجوا الحقيقة منها ، كذلك حدث عند تسليم إيطاليا فى عام ١٩٤٣ أن صدرت ثلاث نشرات فى نفس الوقت من إيطاليا عن طريق محطات باليرمو وكانت فى أيدى الحلفاء ، وبادوجليو وكانت فى أيدى الطليان ، ثم ياري وكانت فى أيدى الألمان . . وقد استخدمت جميعها نفس الموجة . ولكن استطاع قسم الاستماع الانجليزى نقل ما قالته كل محطة على حدة . . ولا شك أن المشاكل الصوتية تساعد أو تعوق حسب الأحوال التعرف على المحطة ، أو على الأقل تدل من ناحية التحليل السياسى على نوع سياسة المحطة ، فإن حدث خطأ فقد يؤدى ذلك إلى سلسلة من النتائج غير المحسوبة ، وإذا كانت الترجمة مُبالغاً فيها ، أو إذا أساء المترجم فهم الخبر بسبب استخدام عبارات لغوية لا يعرفها فإن ذلك قد يؤدى إلى ردّ فعل غير صحيح من الناحية السياسية . . وهذا ما حدث عندما أساء الاستماع البريطانى فهم الأخبار المصرية الخاصة بتأميم قناة السويس وخطاب جمال عبد الناصر ، وكان تصرف إيدن قائماً على هذا الخطأ .

وفى الحقيقة أنه لا يمكن إثارة حرب إذاعية أو الدخول فى مجادلات على الهواء بدون وجود جهاز استماع كامل ، وعلى قدر كبير من الكفاءة فى كل من الجانبين المتخاصمين . . وقد حدث فى الحرب العالمية الماضية أن كانت أجهزة الاستماع تسجل خطبة هتلر وما فيها من وعود براقة بالنصر ، وقد استخدمت الإذاعة البريطانية هذه التسجيلات فى دعايتها ، كذلك تستشهد إذاعة موسكو عادة بجزء مما تقوله الإذاعة البريطانية أو صوت أمريكا أو راديو بكين ، ولا يمكن معرفة هذه العبارات المقتبسة إلاّ عن طريق الاستماع . . كذلك نجد عدداً من المحطات تستخدم فقرات مما تذيعه المحطات المعادية فى خدماتها الدولية ، وإن يكن ذلك من باب الدعاية السيئة إذا ما أدى ذلك إلى ترويج لخبر غير حقيقى ، وهناك بعض المحطات الدولية تذيع برامج تقتبس فيها فقرات من إذاعات أجنبية وتقارنها بفقرات أخرى وتعلق عليها .

وهناك مشكلة لابد من إثارتها ، وهى إلى أى حد نستطيع أن نقول إن الإذاعة تعبر عن

رأى الحكومة الحقيقى ، خاصة بالنسبة للدول المجاورة ، علماً بأن ما تقوله محطة من المحطات سوف يكتب ويقيد ويرسل إلى جميع الجهات المعنية ، وأن بعض الحكومات التى تتحكم فيما تذيعه محطاتها تلجأ إلى استخدام الخدمات الدولية كامتداد لنشاطها الدبلوماسى ، وهى إذا فعلت ذلك إنما تتبع طريقاً صحيحاً وسريعاً ، بل قد تستطيع عن طريق إذاعاتها الخارجية أن تجس نبض أى حكومة فى اى أمر تريده قبل أن تقدم عليه رسمياً . . وهذه وظيفة معترف بها للإذاعات الدولية ، وأحياناً قد تطلق الحكومة ما يم عن اتجاهها الرسمى بدون أن تعتمد على قيام الدولة المستهدفة بتسجيل كل ما تذيعه وتحلله . .

أما بالنسبة للمستمعين العاديين فهم لا يعرفون شيئاً عن هذا ، إذ تسير عملية الدعاية الخارجية بالنسبة لهم سيرها العادى غير متأثرة فى الظاهر بالتفاصيل الدقيقة أو المخرفة التى قد تقدمها الحكومة ولكن القائمين على الاستماع يعملون فى تحليل البرامج والأخبار ، وقد تدربوا عليها بحيث يستطيعون التعرف على الأخبار الصادقة من غير الصادقة والتوجيهات الحقيقية من التوجيهات الصورية باستماعهم إلى البرامج المحلية للدول المعنية والبرامج الدولية الأخرى ، فتسهل عملهم أو تصعبه حسب الأحوال ، فهى تسهل لأن الإذاعة تعتبر مصدراً فريداً وهاماً للأخبار الموثوق بها ، وتصعب لأن الإذاعة وسيلة للدعاية الحكومية وقد ترمى إلى الإعلام أو إلى التمويه حسب الأحوال .

الفصل الخامس

الدعاية

الدعاية أشبه ما تكون بعملية ضغط أسموذى ، يكون فيها الفكر بمثابة السائل والعقل بمثابة القنوات ، أى أن العقل يرشح ما يتلقاه من فكر ، وهى عملية مستمرة وسهلة ، فيتقبلها ولو لمدة معينة ، وأية إذاعة كبيرة تلجأ دائماً إلى الإعلام أو الدعاية التى ينطبق عليها هذا الوصف وعلى النقيض من ذلك نجد نوعاً من الإعلام أشبه ما يكون بقنبلة متفجرة أو ستار من المدفعية الثقيلة ، وهو بهذا الوصف يعتبر اليد الطولى للدبلوماسية العتيقة الهجومية ، أو لحركات التحرير الوطنية ، وقد تكون الإذاعة الألمانية أو الإنجليزية فى الحرب الثانية أو الروسية أو الأمريكية فى الوقت الحاضر مثالا على النوع الأول ، وقد تكون القاهرة مثالا على النوع الثانى فى الفترة التالية للعدوان الثلاثى ، وهناك نوع ثالث من الإعلام ، وأعنى به الإعلام البطىء الذى يترسب تدريجيًّا فى ذهن المستمع وتمثله لندن والقاهرة بعد عام ١٩٧٣ . . وهذه الأنواع الثلاثة من الإعلام لها فاعليتها وإيجابيتها ويقاس مفعولها بما يرغب الداعية فى تحقيقه من وراء رسالته ، وكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة يصلح لحالات دون أخرى وأوقات دون أخرى ، فإذا كنت تريد نتائج إيجابية سريعة فى عملية من عمليات التحرير اتبعت طريقة القاهرة بعد عام ١٩٥٦ ، وإذا كانت دعايتك مكملة لسياسة دبلوماسية جريئة اتبعت الطريقة الألمانية ، أما إذا كانت تهدف فى المدى البعيد إلى ترسب الأفكار تدريجيًّا اتبعت طريقة لندن والقاهرة بعد ١٩٧٣ ، وسواء اتبعت الأولى أو الثانية أو الثالثة فإنك تحاول عن طريق إعلامك ودعايتك استمالة الجماهير العريضة أو الصفوة إلى قضيتك وبأعداد كبيرة ، وفى وقت قصير بقدر الإمكان ، حتى تستطيع أن تحقق أهدافاً سياسية معينة . وفى جميع الحالات الثلاثة يجب أن نعلم أن الفشل السياسى أو العسكرى يعمل كستار يخفى وراءه الأثر الحقيقى للإعلام ، ولكن

يلاحظ على إعلام القاهرة أنه برغم النكسة التى أصيبت بها قواتها فى عام ١٩٦٧ فإن دعايتها استمرت بنفس التأثير والقوة فيما عدا فترة قصيرة جداً ، ونجحت فى تغيير سلوك بعض الدول – خاصة فى العالم الثالث – فضلا عن تغييرها أراء وأفكار مستمعيها ، أى تمكنت من تجميع دول العالم الثالث على تأييد القضية المصرية العربية ، بل اكتسبت دولا جديدة لم تكن مع مصر فى قضيتها ضد إسرائيل ، مثل بعض دول الدرجة الثانية ، ولا يمكن إغفال إسهام القاهرة عن طريق إذاعاتها الدولية فى إحداث هذا التغيير السلوكى الدولى بالاشتراك مع الجهد الدبلوماسى .

والدعاية لا تكون إيجابية فى أية حالة من الحالات التى ذكرناها إلاّ إذا تمشت – سواء من ناحية الأسلوب أو المضمون – مع التقاليد التى يعتقدها الشعب المستهدف أو الجماعة المستهدفة وعكست على صفحتها النواحى النفسية التى يعيشها ويأملها ، ومعنى ذلك أن الدعاية يجب أن تكون ترديداً وليس تشويهاً – للرسالة الصادرة من مخ الإنسان .

والمؤسسات الإذاعية تتبع فى دعايتها أنماطاً قومية ووطنية ، وإن يكن بعضها يؤكد أكثر من غيره على النواحى القومية والوطنية وطرق الحياة والسياسة الوطنية ، على أن الإذاعات الدولية لا تلتزم حتماً بهذه القاعدة فى كل الأوقات ، فى حين تلتزم بها البرامج المحلية العامة ، وإذا كانت إذاعة القاهرة الدولية أو إذاعة لندن متفقتين فى التبشير بالتقاليد والأهداف القومية وتعملان فى انسجام امتداداً للخدمات المحلية الداخلية فى بلديهما فإن صوت أمريكا يختلف اختلافاً بيناً عنهما فى إذاعاته الدولية ، إذْ لا يعتبر امتداداً للسمة التجارية الإعلانية التى تتميز بها البرامج المحلية الأمريكية ، أو للمزيج والخلط بين العزلة وسياسة التدخل اللتين تتميز بهما السياسة الخارجية الأمريكية ، وبالتالى نجد صوت أمريكا يشكو من الانقباضات والانبساطات فى الأهداف . .

وهذا التقلب بين سياسة العزلة والتدخل تهيج القروح المزمنة الناتجة عن الضغط الحكومى الشديد على صوت أمريكا فى أن يبيع للعالم الخارجى مفهوم أمريكا فى الحرية والديمقراطية .

وبطريقة مشابهة تقريباً ينطبق نفس الكلام على راديو موسكو ، فهو يهتم كل الاهتمام بفرض حكم الطبقة الكادحة ويعمل على بلبلة المستمع بمزج هذا المبدأ مع المشاعر الوطنية وهو مزج يعكس لنا بحق نوعاً من التخطيط السياسى لدى واضعى السياسة الخارجية ، ولهذا كانت إذاعة موسكو كالإذاعة الأمريكية وجدانية تناقض مع نفسها . . أضف إلى ذلك أن موسكو

قد تشعر بشيء من الأسف لأنها بدأت الحرب الإذاعية فى عام ١٩٢٢ ، ومع ذلك لا تستطيع أن تستغل خبرتها فى هذه الحرب من أجل الحصول على ميزات سياسية عند مخاطبتها النظم السياسية المختلفة فى العالم . أما عن إذاعة بكين وتيرانا حتى ١٩٧٩ فهما تتجاهلان القواعد الأساسية لأساليب الإعلام ، ومن ثم لا نجد لدعايتهما أثراً محسوساً وقد تكون الدعاية علماً لم يكتمل بعد ، ولكن هناك قواعد مستقرة إذا اتبعتها فإنك تستطيع أن تحول الفكرة غير المحببة إلى فكرة يمكن هضمها والدفاع عنها ، والإعلام الإذاعى هو فى الواقع عمل فنى إلى أبعد حدود الفنية ، أى أنه يتطلب شيئاً من رخامة الصوت ونبرة الإقناع مع الشخصية القوية ، واستعراضاً شاملا لجميع الأقوال التى تصدر ليس فى يوم الإذاعة وحده بل فى أيام عديدة سابقة ، وبالتالى هو عمل يمكن عن طريقه خلق أحداث ومشاعر حية وقوية ، من أجل زيادة حماس الجماهير ومشاعرها ، وبالتالى من أجل اكتساب تأييدها وراء الزعيم أو القائد أو الفكرة ، وهدف الإعلام هو إبقاء حيوية الناس مستمرة ومشاعرهم يقظة ليستمر تعاطفهم وسيرهم وراء هدفهم وإلاّ أصابهم الملل وانصرفوا عن الزعيم أو الفكرة ، وقد تكون كلمة « الدعاية » غير محببة ، والواقع أن ما صحبها من بذاءة فى القول وإثارة للمشاعر الخسيسة عن طريق بعض الإذاعات قد أسبغ على الكلمة المقت والاحتقار ، والدعاية إذا ما استخدمت لإثارة المشاعر أو للسباب والإهانة إنما تكون أداة يوجهها الدكتاتوريون أو الزعماء الذين يضمرون أطماعاً عدوانية سواء فى المجال الوطنى المحلى أو الخارجى ، والدعاية بهذا المعنى تعتبر هدامة ، لأن غرضها الهدم ، ولكنها إذا وجهت إلى نظام أو حكومة لا تتفق معها فإننا قد نقر بيننا وبين أنفسنا بأن ما نذيعه لشعب هذه الحكومة أو هذا النظام هو عمل هدام ، ولكنه هدم من أجل الخير ، والإذاعيون لا يتفقون مع رجال القانون الذين يتمسكون بآرائهم القانونية ، والذين يقولون إن الدعاية القائمة على الضرر والإيذاء وإثارة المشاعر والوجدان من أجل الوصول إلى أهداف معادية هى دعاية نكراء يجب استنكارها والقضاء عليها عن طريق المجالس والهيئات القومية والدولية ، ولكن قد نجد مبرراً فى بعض الأحيان لإدخال الوعى والحكمة فى عقول الحكومات الممعنة فى تحفظها أو فى تطرفها السياسى سواء كانت يمينية أو يسارية ، وقد يكون من الحكمة أيضاً أن نهز الحكومات المتعنتة فى تعصبها عن طريق الحملات الدعائية ، ومهما يكن من أمر فإن الدعاية من الناحية القانونية عمل يزداد غموضاً وريبة كلما كبر وترعرع ، ولكن الدعاية من الناحية السياسية موضع اللوم والمؤاخذة سواء كانت تهاجم عناصر طيبة

أو عناصر سيئة ، وسواء التزمت بلهجة عدائية أو لهجة معتدلة إذ يتوقف كل ذلك على الطرف الذى ينظر إليها ، إما أنها فى صالحه أو ضده .

والإذاعات السوداء تهدف إلى التدمير والبلبلة ، وإن يكن من الممكن فى بعض الأحيان اعتبارها إذاعات سياسية وفق ما تقدمه من مضمون ورأى ، وليس وفق الصفات الأخلاقية التى تتسم بها ، وعلى كلٍّ نجد الإذاعات السرية المجهولة الأصل تمثل قسماً صغيراً جداً فى أيام السلم – بعكس أيام الحرب – من الإذاعات الدولية ، وهذه الإذاعات السوداء من ناحية التأثير – لا يمكن أن تصل إلى تأثير الإذاعات الرسمية ، ومع ذلك فإن المفاضلة بينهما أمر يخص الحكومة المعنية ، ولا يمكن وضع شروط لاستخداماتها وعلى كل نشير إلى أن الدعاية السوداء أكثر ما تستخدم فى النواحى التكنيكية من أجل الإيقاع بالعدو فى كمين ، أو تحويل انسحاب منظم إلى هزيمة نكراء عن طريق إصدار أوامر كاذبة ، أما كونها وسيلة اتصال جماهيرية فتأثيرها بسيط ومشكوك فيه .

ومحطات الإذاعة الكبيرة قد تلجأ إلى الدعاية الهدامة بطريقة أخرى ، بمعنى أنها تعمل على تحويل خدمتها إلى برنامج محلى عام للشعب المستهدف دون أن يخضع لحكومة هذا الشعب ، وإذا ما كان الساسة بأجمعهم يميلون فى بلد ما إلى مبدأ المحافظين حتى لو كانت الدولة ثورية فقد تلجأ حكومة خارجية إلى توفير مصدر آخر للأنباء ووسيلة جديدة لعرض الآراء التى تجعل حكم هذه الحكومة فى غاية الصعوبة ومن ناحية الشعب نفسه نجد مثل هذه المحطة تقدم أخباراً وآراء لا تقدمها المحطة الوطنية ، وبالتالى تتيح للشعب أن يطلع على الآراء المختلفة خاصة المناهضة ومثل هذه المحطات ذات أثر محدود للغاية إذ انها لا تصل إلاّ لعدد محدود أو لأقلية ضعيفة فى العادة ، أما الغالبية فإنها تتجه نحو الآراء التى تتفق مع آرائها فلا تهتم بها ، بل هى تعارض تلك الآراء المناهضة ، والدعاية التى لا تتفق مع وجهة نظرها فى الشئون الدولية ومع ظروفها الخاصة ، ومعنى ذلك أن المستمعين يعتقدون فى الأشياء التى يرتاحون إليها ، أضف إلى ذلك أن محطة من هذا القبيل مجهولة الأصل لابد أن تُقابل بنوع من الصَّدّ والاعتراض ، فالمستمع عادة لا يقبل الدعاية الصادرة من مصدر أجنبى بعيد عنه إذا كانت تمس أوضاعه الخاصة ، أى أنه فى العادة لا يرغب فى أن يتدخل غيره فى شئونه الشخصية ، ومن ثمَّ نجد أن الدعاية التى وصفناها فى مستهل هذا الفصل أشبه بالضغط الأسموذى ، أو النوع الأول والثانى الشديد الوطأة ، وهما النوعان الوحيدان اللذان يترسبان فى فكر المستمع

فى مثل هذه الحالات فالنوع الأول « الضغط الأسموذى » يجب أن لا يشعر المستمع معه أنه هدف للدعاية ، وفى النوع الثانى لا يستطيع المستمع المقاومة إذا ما استمر فى الاستماع إلى الإذاعة المعنية .

ويجب أن نشير إلى أن غالبية شعوب أوربا وأمريكا الشمالية تستطيع تلقائيًا أن تكتشف الدعاية وتتعرف على لونها بخلاف ما كانت عليه الشعوب فى الثلاثينيات والأربعينيات ، بل فى الخمسينيات ، حيث كان الناس يعتقدون أن أثر الدعاية ضار ونافذ فى نفس الوقت ، أما اليوم فيتجه الرأى إلى أن الدعاية لهذه الشعوب لا تترك أثراً كبيراً فيها .

والدعاية الإذاعية هى أسرع أنواع الاتصال الجماهيرى وأشدها تأثيراً ، ويجب أن تكون شاملة ومؤثرة عن طريق التكرار وغيره من أساليب الاستمالة المتعارف عليها ، والتى يمكن عن طريقها تلطيف ما هو مرفوض وتقريبه إلى ما هو مقبول . . بمعنى أنه إذا قام رجل مثلا فى ميدان الأوبرا عام ١٩١٤ وأخذ يصيح بأعلى صوته بأن الشيوعية يجب أن تسود المجتمع فمثل هذا الرجل كان يعتبر فى عام ١٩١٤ مجنوناً ، أما إذا قام شخص مثله وأخذ يردد هذا الكلام فى ميدان الأوبرا اليوم فإن الناس ينظرون إليه ليس كرجل لا تؤخذ عباراته على محمل الجد بل كرجل شيوعى يدعو لمذهب قائم فعلا .

وقد تكون للدعاية آثار سلبية إذا ما بدأت الإذاعة فى ترويج الإشاعات ، والسبب فى ذلك أن الدعاية الإذاعية بنوع خاص عملية لا يمكن التحقق من صحتها فى الحال والمكان ، لأنها عادة تأتى من مكان بعيد ، وقد حدث فى الحرب الثانية أن روجت الإذاعات الكثير من الشائعات مثل وجود فرقة روسية ببريطانيا وكيف أن الناس شاهدوا الثلج يغطى أقدامهم فى شهر أغسطس (تصور المتناقضات » ومع ذلك انتشرت هذه الإشاعة ، كذلك انتشرت فى فبراير عام ١٩٤٢ إشاعة تقول إن اليابانيين احتلوا جزر هاواى ، ومما ساعد على انتشارها انتصار اليابان فى بيرل هاربر ، كذلك روجت الإذاعة الألمانية خلال الحرب الماضية إشاعات عديدة أثارت قلق الحكومة البريطانية . والإشاعات التى قد تروج فى بوخارست أو كمبالا أو لاجوس إنما تقوم على أخبار لم تفهم تماماً صادرة عن إذاعة يغذيها وينميها جو من الخوف والقلق الاجتماعى ، وسواء انتشرت هذه الأخبار من شخص إلى آخر بالقول أو ساعدت ظروف المجتمع وتقاليده على نشرها فإن قوة الدعاية الدولية فى ازدياد مستمر ، بل أخذت الإذاعات الكبرى كالقاهرة تشعر بمدى وظيفتها ومسئوليتها نحو انتشار الأخبار باعتبارها المصدر

الأخير في بعض الأماكن - الذى يعتمد عليه المستمع فى مراجعة الخبر والتيقن من صحته أو كذبه ، ومن ثمّ تجهد هذه المحطات العالمية فى التأكد من مصدر الخبر وصحته والحقائق التى يرويها ، على أن يحدث فى بعض الأحيان أن تتلقى الأجهزة المعنية فى الإذاعة بعض أقوال أو شائعات يستشهد بها عند التدليل على صحة الخبر وحدوثه .

وكما أشرت يبدو أنَّ الناس بطبيعتهم لديهم مناعة ضد الأخبار الأجنبية ، أو على الأقل هم حسنو النية إذا ما صدقوها . وينتهز الدعاة من أصحاب مدرسة الدعاية الهجومية مثل هذا الوضع لاستغلاله لصالحهم بيذر نوعٍ من البلبلة فى نفوس هؤلاء الأفراد الطيبين ، وقد لجأ البريطانيون والنازيون إلى نفس الطريقة معتقدين أنهم بتكثيف البلبلة والاضطرابات يستطيعون إبقاء المستمعين فى حالة من التقبل لإذاعاتهم أطول مدى ، وعملية البلبلة تقوم على إيراد موضوعات أو أنباء خبرية تنتهى بنفس النتيجة العامة المؤيدة للمحطة ، أما عملية الاضطرابات فهى عملية عكسية تقوم على تضارب الأفكار والمعلومات ، وعلى ذكر هذين الأسلوبين فى الدعاية نشير إلى أنهما لا يصلحان للمدى الطويل إطلاقاً وإذا استخدم أحدهما فيجب أن يكون استخدامه فى المدى القصير جداً حتى يكون فعالا مع عدم التكرار ، إلا بين الحين والحين ، وعلى مسافات متباعدة .

وفى مجال هذا الأسلوب من أساليب الدعاية نقول إن المحطة التى تتبعه لا تعمل أو لا رغبة لها فى اطلاع مستمعيها على الحقيقة ، وتوضيح الأمور أو قتل الشائعات ، وقد تتبعه محطة من المحطات كما حدث مع راديو بكين فى إذاعاتها الخارجية بقصد اطلاع أكبر عدد من المستمعين على أشياء لا يعرفون عنها شيئاً ، فلو كانوا يعرفون الحقيقة لما لجئوا إلى أسلوب البلبلة أو الاضطراب ، وليس اتباع هذا الأسلوب محضَ طريقة للتغلب على مقص الرقيب ، فأقسام الأخبار فى كل إذاعة تدرك وظيفتها السياسية ، وتعرف أن الحكومات الأجنبية تتدخل دائماً بإعاقة وصول الموجات غير المرغوب فيها فيتوقف تدفق الأخبار والمعلومات ، وعلى ذكر تدفق المعلومات نشير إلى مجال حيوى هو تعليم اللغة بالراديو ، وإن كانت بعض المحطات الإذاعية تستخدمه بشكل أو بآخر لتحقيق أهداف سياسية ، أو ليكون طعما يجذب المستمع إلى برامج أخرى وليس من المستحسن أن تكون دروس تعليم اللغة بالراديو مملوءة بالهمزات واللمزات المذهبية ، فتعليم اللغة فى ذاته طريقة إيجابية وفعالة لتخطى العوائق الدولية فى مجال تعارف الشعوب ولكن ما بال تعليم المواد والعلوم الأخرى لمستمعين من الأجانب ، مثل التاريخ ،

والجواب على ذلك أن تعليم المواد الأخرى خاصة الاجتماعية مشكوك فى أهدافه ، فالتاريخ يمتزج مع الأهداف الوطنية والقومية ، والعلوم مع التقدم التكنولوجى والدعاية الصناعية ، كما أن المحطات الدينية هى محطات تبدى مذهباً على مذهب ، ومن ثمّ تصبح محطات تعمل على التفرقة . ولكن تعليم اللغة عمل كبير وهام فى الإذاعات الدولية ، بل أكثر أهمية وفاعلية من التعليم المباشر.

ومن الآثار الإيجابية للدعاية الدولية بالإذاعة تأثير هذه الإذاعات على مستويات البرامج فى وسائل الاتصال الأخرى خاصة الإذاعة ، فالإذاعة باللغة العربية من دولة أجنبية إلى مصر هى تحد للإذاعة المصرية لا يمكن إهماله ، وعلى إذاعة مصر أن تدرس هذه الإذاعة الأجنبية ، خاصة إذا كان لها تأثير سياسى فتصنع أشد المواد تشويقاً فى وقت إذاعتها المواد المطلوب صرف المستمعين عنها فى الإذاعات الأجنبية ، ومثال ذلك أن البلغار اضطروا إلى إدخال برامج المنوعات والبرامج الترفيهية لمنافسة راديو أوربا الحرة وغيره . ويجب أن لا ننسى أن هناك إذاعات أجنبية عديدة فى مختلف أنحاء العالم تتربص بالمستمعين المتذمرين من إذاعاتهم أو وضعهم السياسى للانقضاض عليهم وجذبهم إليها ، ولهذا نجد الإذاعيين كثيراً ما يطلبون إلى حكوماتهم زيادة الاعتمادات المخصصة للبرامج .

وفى الدول التى تفرض فيها الحكومات نظاماً صارماً للرقابة نجد تحدياً للمحطات الأجنبية ومنافستها للمحطات المحلية على أشد ما يكون ، وفى هذا المجال نجد أمامنا مدرستين : الأولى تنادى بالتدفق الحر للمعلومات . وتحتج بأن هذا التدفق لابد أن يأتى بالخير مهما كانت المنافسة حادة بين الإذاعات الدولية والإذاعة المحلية التى تخضع للرقابة فى الدولة الشيوعية ، حيث أصبحت الرقابة غريزة أكثر منها نظاماً للدفاع ضد تصورات الأجانب وأفكارهم . ونجد حكومات هذه الدول تعمل على توسيع رقعة الأخبار وتطويرها ، وإلا كان تدخل الإذاعات الأجنبية فى شئونها الداخلية أمراً له ما يبرره ، والمشكلة التى نواجهها هى فى الواقع فرض آراء أجنبية تقدمها الإذاعات فى الدول الغنية القوية على المستمعين فى الدول الفقيرة ، وتنادى المدرسة الثانية بأن التدفق الحر يجب أن يكون بين أضداد متساوين ، فلا يتسلط جانب على آخر ، وفى حالة الدول النامية التى تتبع نظاماً اشتراكياً اقتصادياً موجهاً لابد أن تحصن أبناءها حتى ينجح هذا النظام فى توفير الوفرة فى جميع السلع مما يسعد المجتمع ، ولتحصين أفراد المجتمع يجب أن تتصدى الحكومة للأفكار التى تبدو فى مظهرها جذابة ، وفى حقيقتها معوقة

للتقدم ، ومن ناحية الدول النامية بالذات نجد الصفوة من المتعلمين والأثرياء هم الذين يستمعون فى الواقع إلى الإذاعات الدولية ، أما الجماهير فقلما تستمع إليها بانتظام ، وإذا أخذنا تاريخ الدول النامية نجد أن الطبقات الحاكمة فى الوقت الحاضر هى الطبقات المتوسطة التى قادت شعوب هذه الدول نحو الاستقلال ، وهى التى وقفت ضد الدول العظمى الاستعمارية وضد الاستعمار الاقتصادى متمثلا فى رأس المال الصناعى الأجنبى ، والأهم من هذا وذاك ضد الرأسمالية الثقافية ، ومن ثمَّ نجد الدول الكبرى كأمريكا وروسيا والدول الاستعمارية السابقة كبريطانيا ، وفرنسا تختط لنفسها طريقها الخاص للمحافظة على الصلة التى تربطها بشعوب الدول النامية التى كانت تستعمرها فيما مضى ، وتنمية هذه الصلة فى المجالات الثقافية عن طريق التبادل الإذاعى للإبقاء على نفس النفوذ السابق بقدر الإمكان ، ولهذا نجد الإذاعات الدولية الفرنسية تعزز وتؤكد الصلات الاقتصادية والثقافية بين الوطن الأم السابق « فرنسا » . . والمستعمرات التى استقلت عن طريق نقل أجزاء من البرنامج المحلى المذاع داخليًّا فى باريس إلى المستعمرات . . ولقد عرفنا كيف يدافع « الغير » عن مصالحهم الوطنية ، كما عرفنا أن العامل المشترك بين هذه الدول أنها توجه إذاعتها فى المقام الأول إلى أصحاب النفوذ والساسة أصحاب الحظوة لدى الشعب ، ويقول أحد الكتاب فى ذلك : « فى المجتمعات الحديثة (النامية) لا يستطيع السواد الأعظم من الشعب أن يغير سياسة الدولة ، أو حتى يؤثر فى مسارها ، أو أن يغير فى الأنظمة القائمة بدون إحداث انقلابات مسلحة داخليًّا ، إما بمساعدة دولة خارجية وإما بمساعدة القوات المسلحة ، وبدون وجود قيادة سياسية منظمة لا يصبح الشعب فى مجموعه هدفاً طيباً للدعاية المضادة من الخارج ، وأية دعوة مناقضة أو معارضة هى فى الواقع تزييف للديمقراطية بمعرفة الدعاة الديمقراطيين الذين لا يهتمون بالخلافات فى الوضع السياسى بين أنظمة يعيشون فيها ، وأخرى يعيش شعوب الدول النامية فيها » .

وقد يرد البعض على ذلك بأنه ليس هناك تزييف للديمقراطية عندما تؤكد إذاعة من الإذاعات قوة الرأى العام حتى فى الظروف الديكتاتورية ، ويستشهدون على ذلك بأن جون فوستر دالاس عدل عن رأيه فى هذا الموضوع ، وأن رجال الدعاية فى الحرب العالمية الثانية سواء من الحلفاء أو المحور كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بجماهير الشعب ، ويرفع معنوياتهم وبالتالى قدرة البلد على الدفاع والصمود ، ولا شك أن هذا الرأى لا يتعارض مع الرأى السابق ، إنما يمتد فقط إلى شعوب الدول المتقدمة ، فى حين أن الرأى السابق يفرق فى المعاملة بين شعوب

الدول الغنية المتقدمة والفقيرة النامية .

والدعاية برغم ما تتخذه من صور عديدة ترفيهية أو ثقافية أو تعليمية يجب أن تبتعد عن المبارزة بين أصحاب المذاهب المتنازعة المدافعين عن هيئات دعائية متنافسة ، ويجب أن تخاطب الشعوب .

ومن جانب ألمانيا نجد أنها وجهت إذاعتها ودعايتها دائماً إلى السواد الأعظم من الشعب ، ولم يكن هتلر ولا جوبلز يعتد بالديمقراطية ، ومع ذلك كان يعتقد فى قوة الرأى العام المنظم الذى تعززه القوة العسكرية .

ولكن هذا الرأى فى حد ذاته ربما لا يكون صحيحاً على الدوام ، فالإذاعة وسيلة متاحة لكل الأفراد فى الوقت الحاضر ، ولا يمكن أن نوجهها من الناحية الفعلية إلى شريحة من الشعب دون شريحة أخرى ، والمسألة الرئيسية هى : هل يجب توجيه الإذاعة فى المقام الأول إلى شريحة من مجموع المستمعين ؟ وهل يكون هدف الإذاعة الدولية الإعلام أولا وأخيراً ، أو أن يكون الاعلام فى المقام الأول ثم الترفيه لتحفيز الناس على الاستماع وليس لصرف انتباههم إلى المواد الترفيهية وحدها ، وبالتالى يكون من الواجب توسيع رقعة السواد الأعظم من المستمعين للإذاعات الدولية بدلا من الحد منهم وقصر الإذاعة على الصفوة ؟

ونحن إذا بحثنا النموذج الروسى أو الأمريكى نجد معنى ذلك الوصول إلى جمهور من المستمعين أكثر من هؤلاء الملتزمين بالمبدأ الشيوعى أو الديمقراطى ، وبالنسبة للنموذج الإنجليزى نجد معنى ذلك أنه على الإذاعة البريطانية أن تعدل عن اهتمامها بالطبقة المتوسطة ، أما الإذاعة المصرية فهى تهتم بالوصول إلى السواد الأعظم من الشعب دون أن تثير ملل المتعلمين المثقفين ، ولقد اتبعت القاهرة أسلوب مخاطبة السواد الأعظم من الشعب والالتجاء إلى مشاعره الوطنية عند التعرض للأهداف الوطنية التى يطالب بها ، وبالتالى تتجه القاهرة إلى الصفوة والسواد الأعظم فى المسائل القومية والوطنية ، كما تهتم بالمسائل المحلية التى لا خلاف عليها مع شرح التجارب المختلفة للنهوض بمشروعات التنمية ، والاهتمام بالسواد الأعظم من المستمعين وتوعيتهم . بمعنى أنها تسير فى خط يجمع بين السواد الأعظم والصفوة ، فى حين أن صوت أمريكا يسير فى خط لا هو مع الصفوة ولا هو مع السواد الأعظم . . وعلى كلٍّ فإن كل خدمة لغوية هى محدودة بوقت معين وبإمكانيات معينة ، وتستطيع أن تصل إلى عدد من المستمعين لا حد له ، إذا كانوا يتكلمون نفس اللغة ، أما إذا اختلفت لغاتهم فى المنطقة فإن الخدمة

اللغوية لا تصل إلاّ لمن يتكلم اللغة التى تذيع بها ، وإذا أرادت إذاعة دولية أن تقيس الاستماع إليها أو فاعلية برامجها لمستمعيها فى المناطق المستهدفة حتى تستطيع أن ترسم لها خطة أو خططاً تقوم على أساس علمى سليم أو على أساس التكاليف بقصد التوسع فيما يجب التوسع فيه أو الانكماش إذا ما أرادت الانكماش – فإننا نقول للأسف لا توجد وسيلة تمكننا من الحصول على المعلومات المطلوبة لتحقيق هذا الغرض ، وعلى العموم فإن قياس فاعلية أية وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيرية – وبالتالى تقييمها – أمر يكاد أن يكون متعذراً للغاية ، زد على ذلك أن الدعاية بالراديو تضيف إلى المشاكل العادية صعوبات أخرى إلى جانب قياس الإذاعات الموجهة بطريقة علمية .

وعلى كلٍّ فمن الصعب أن نتقدم ببيانات عامة أو قواعد متبعة للتعرف على فاعلية الدعاية ، على الرغم من أن جميع الناس الذين عايشوا جوًّا مشبعاً بالدعاية سواء عملوا بها أو استسلموا لها أو أداروها أو شاهدوا تأثيرها يتفقون على أن للدعاية أثراً كبيراً . . أما هؤلاء الذين لا يأبهون بها أو ينكرونها فلا يخرجون عن رعايا دول معينة لم تخضع كثيراً للدعاية المركزة ، وهم ليسوا كالألمان والروس أو الإنجليز أو المصريين .

وهناك شىء من التخبط فى بعض محاولات قياس التأثير النسبى لأنواع الدعاية المختلفة أو وسائل الاتصال الجماهيرية التى تنقل الدعاية إلى أهدافها ، كذلك التأثير النسبى للرسالة أو للرسالة والوسيلة معاً . . وعلى كل نستطيع أن نقول أن هناك من أساليب الدعاية ما يوافق نوعاً من الرسائل أكثر من غيره ، كما أن هناك من وسائل الاتصال ما يفوق غيره لإبلاغ أنواع معينة من الرسائل ، ويرى بعض الأساتذة أن هناك ثلاثة طرق لقياس فاعلية البرامج الدولية ولكنها غير أكيدة أو مرضية . . الأولى ، الآراء الموضوعية القائمة على التحليل النظرى ، والثانية ، القصص والأخبار الأكيدة القائمة على المشاهدة الشخصية ، والثالثة ، أبحاث المستمعين . . ولنضرب مثلين على الآراء الموضوعية ، من ناحية الإذاعات الموجهة من الغرب إلى الشرق والإذاعات الموجهة من مصر إلى العالم العربى . . لقد كانت الدعاية الغربية الموجهة إلى أوربا الشرقية – بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى – سخيفة وغير منتجة سياسيًّا حتى مع عدم وجود التشويش . . وإن كان من نتائجها الرئيسية أن شجعت الشباب على تعلم موسيقى الجاز وتقليد بعض المغنيين والمطربين فى الأفلام الأمريكية . . والمثل الثانى يتعلق بحملات مصر فى عام ١٩٥٤ ضد حلف بغداد وكيف أدت إلى سقوط حكم الملك فيصل فى العراق وقيام الثورة

ضد نورى السعيد ، وهناك مثل ثالث نسوقه لا للتدليل على كفاءة الدعاية ولكن لأنه يستخدم كوسيلة للضغط ، ونعنى به صوت أوربا الحرة ، وراديو الحرية ، ولسوف يكونان فى أية مفاوضات بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة – مثل مناقشات الحد من السلاح ، أو الانفتاح التجارى ، أو الأمن الأوربى ، أو حماية البيئة – موضع أخذ ورد ، لأن أمريكا تعتقد أن لها تأثيراً كبيراً على شعوب أوربا الشرقية ، فى حين ترحب روسيا بغلق هاتين المحطتين لما يثيرانه من متاعب فى أوربا الشرقية .

وهناك أمثلة عديدة على الأخبار الأكيدة القائمة على المشاهدة وهذه الأخبار يوردها لنا المشرفون على المحطات الأجنبية ليقنعوا بها من بيدهم الموافقة على الاعتمادات المطلوبة ، أو ليرفعوا بها معنوياتهم أو معنويات العاملين فى الإذاعات الدولية ، وهذه الأخبار تشير كلها إلى تأثير الدعاية على الحكومات والأفراد ، ولقد كانت شائعة فى أيام الحرب العالمية الماضية ، ولا نغالى إذا قلنا إنها كانت نتيجة مخططة مدروسة ، فمثلا إذا أخذنا النداء الذى صدر من الإذاعة الفرنسية بلندن إلى الفرنسيين بأن يرفعوا على كل منزل العلم الفرنسى فى يوم الباستيل عام ١٩٤٢ نجد ملايين الناس قد استجابوا للنداء فى جميع أنحاء فرنسا ، كذلك استجاب أهل كينيا فى عام ١٩٥٧ لنداء القاهرة عندما رسموا على الحوائط كلاباً ملونة باللون الأحمر ، أو عندما أعلنت المحطات الغربية عن موت بوريس باسترناك Boris Pasternak وجنازته فى بريديل كينو Peredel Kino فتجمع آلاف من الناس لتشييع جنازته ، وهناك قصص كثيرة توردها خطابات المستمعين وتذيعها المحطات الدولية لتعزيز وجهة نظرها من ناحية تأثير الإذاعة على المستمعين فى مختلف الأقطار والفئات والطبقات ، ويعلن التشيكوسلوفاكيون أنهم يتلقون أكثر من مائة ألف خطاب سنويًا مدللين بذلك على نجاحهم ، فى حين تتلقى الإذاعة البريطانية أكثر من ألف خطاب فى الأسبوع بالنسبة للبنغالية فى أوقات الأزمات ، وتشير النوادى الدولية إلى أن محطة القاهرة تعتبر المحطة الأولى فى الخدمات الدولية باللغة البنغالية ، وتحليل هذه الخطابات هو من اختصاص بحوث المستمعين الملحقة بالإذاعات الدولية .

وفى حالة راديو الحرية وراديو أوربا الحرة دلت عمليات استجواب اللاجئين كما دلت أقوال الزائرين المارين بالدول الغربية على صحة ما ذهبت إليه إدارات بحوث المستمعين فى تحليلها للخطابات الواردة من أن الأمور معقدة ومتداخلة ، ولا يمكن الخروج بنتائج واضحة عن خدمة دولية من بحوث المستمعين ، وحتى إذا تمكنت إذاعة من الإذاعات من أن تقوم

باستفتاء المستمعين فى الدولة المستهدفة فإنها تخرج عادة بنتائج تؤكد ما يرد فى بريد المستمعين ، هذا . ونلاحظ أن هذه الأبحاث التى تجرى فى المناطق المستهدفة لا يمكن أن تكون وافية أو أكيدة حتى بالنسبة للباحثين ، نظراً لتكاليفها الباهظة وبالتالى لا تجرى على نطاق واسع بل على أضيق نطاق ، واعترفت بذلك الإذاعة البريطانية عندما قال رئيس بحوث المستمعين بها : « من ناحية الإذاعات الخارجية نجد من المستحيل إجراء بحوث على مستوى الدولة المستهدفة بسبب اتساع رقعة الدول وما قد نعتبره عينة نموذجية فى منطقة من المناطق ربما لا يكون بالضرورة عينة تمثل الرأى العام فى الدولة » .

كما أن طريقة وضع الأسئلة واختيار أعضاء اللجان ليست مرضية ، فالمستمعون الذين ينضمون إلى العينات ليسوا فى الواقع نماذج المستمعين العاديين ، وقد يكونون متحمسين أكثر من اللازم أو قد يكونون هم الأشخاص الوحيدون الموجودون الذين يقومون بهذا العمل ومهما يكن من أمر فإن عملية اختيار العينات والإحصائيات التحليلية فى تقدم مستمر ، وأصبح من الممكن الاعتماد عليها بقدر أكبر من ذى قبل ، ولكنها مع ذلك لن تسفر عن نتائج تغير من آراء المشرفين .

وعملية بحوث المستمعين تكشف لنا عن أنماط هامة مثل معدل سن المستمع للإذاعات الأجنبية ، وكيف أنه انخفض فى جميع الدول ، وبالتالى يجب توجيه الكثير من البرامج للفتيان والشباب ، كما أن عدد المستمعين يرتفع فجأة فى أوقات – الأزمات .

ومن المتفق عليه أن عدد المستمعين للإذاعات الأجنبية فى زيادة مستمرة بسبب زيادة عدد الأجهزة التى تستطيع أن تستقبل الموجة القصيرة ، وبسبب عدم رضاء الكثير من الناس عن إذاعاتهم المحلية خاصة فى العالم الثالث ، ولهذه الأسباب قد يكون من الخطأ حتى وإن كان العكس محتملا ، أن نفرض الرقابة المانعة أو التشويش الكامل على الإذاعات الأجنبية على زعم أنها وسيلة للدعاية الهدامة ، والواقع أننا قد نطلب المحال إذا طلبنا من الساسة فى أية دولة سواء أكانوا من اليمين أم اليسار أم الوسط أن يتصوروا أن العالم سوف يكون مكاناً صالحاً للحياة إذا ما وضعوا وسائل الاتصال الجماهيرية تحت سيادة الدولة ، أو نقترح عليهم إنشاء إذاعات دولية تابعة للأمم المتحدة كمصدر بديل للأخبار أو كضمان لتدفق المعلومات ونحن إذا سلمنا بالمبدأ فسوف يكون لإذاعات الأمم المتحدة رأيها الخاص ، ولسوف تعمل كوكالة إعلان للدولة صاحبة النفوذ ، ولن تحل الإشكال القائم الناتج عن تعدد المحطات الدولية ، سواء

أكانت حكومية أم شبه حكومية أوحتى تجارية .

أضف إلى ذلك أن عملية التحرير نفسها لن تتناول مجرد ذكر جلسات الأمم المتحدة وما يدور فيها ، بل سوف تتلون دون شك بلون المحرر السياسى ، ويشير الكثيرون ممن اشتغلوا فى وضع تقارير الجلسات الصاخبة التى عقدتها أية وكالة من وكالات الأمم المتحدة إلى أن هذه التقارير لا ترضى أحداً ولا يعترف أحد بأنها متوازنة وإذا كان هذا هو حال التقارير فما بالك بإذاعة تابعة للأمم المتحدة .

هذا وقد حدث أن ظهرت إذاعة على الهواء فى الكونغو على موجة إذاعة تشومبى التى كانت تذيع الموسيقى الحديثة ، فأسرعت جنوب أفريقيا إلى اتهامها بأنها تذيع دعاية ضد البيض ، واضطرت المحطة بعد عدة أشهر إلى أن تتوقف وبالتالى نقول إنه من الواجب أن لا تستخدم الأمم المتحدة إذاعتها فى أعمال الدعاية أو الإستماع وأن تقتصر فى جهودها على حل المشكلات السياسية والقانونية .

إننا لن نغير من الدعاية الإذاعية التى تقدمها المحطات الدولية ، أو التى تقدمها بعض فئات للضغط على فئات أخرى كما هو حادث فى قبرص أو الدعاية التى تهيمن عليها الهيئات أو جماعات التحرير أو المخابرات فالإذاعة سلاح هام فى أيدى كل هؤلاء بل هو مصدر هام للأخبار والمعلومات بالنسبة لهؤلاء المحرومين من معرفة ما يجرى من نشاط سياسى أو اقتصادى خارجى أو داخلى ، ولسوف تبقى الإذاعات الدولية ولن تؤثر فيها أية تطورات فنية أو هندسية ستبقى كوسيلة رئيسية للاتصال الدولى ، وحتى إذا تمكن المهندسون فى المستقبل من إيصال التليفزيون إلى أجهزة الاستقبال مباشرة عن طريق الأقمار الصناعية فلن يؤثر ذلك كثيراً على الإذاعة الصوتية ، بل ستكمل ما ينقصها .

ومهما يكن من أمر فيجب أن نعترف فى نفس الوقت بأن بعض الإذاعات الدولية ضارة كل الضرر ، مثال ذلك صوت جنوب أفريقيا (الذى لن يدعى غير الأقلية من المتعصبين العنصريين أن هذه الإذاعة خيّرة) . . هذا وتشعر بعض الحكومات بل يشعر الكثير من الأفراد بأن مراكزهم فى خطر مما تذيعه المحطات الأجنبية ويميلون إلى إيقافها ، أو على الأقل إيقاف الرسائل التى تحملها .

ولنفرض أننا تمكنا من إيقاف الدعاية الدولية بالإذاعة فمعنى ذلك أننا سنعمل على تعزيز فئة المحافظين أو الرجعيين أى أننا سنمكن لفئة سياسية من أن تحكم البلاد . بطريقة خاصة

فلا تجد نفسها مجبرة على التعرف على آراء الشعب ، وبالتالى سوف تسنح لها الفرصة بل كل الفرص للسيطرة على أجهزة الإعلام سواء أكان ذلك عن طريق مباشر أم غير مباشر ، وعندما نشير إلى المحافظين نفعل ذلك ونحن نعلم أن من مبادئهم خلق اتجاه يعمل على إقناع الصفوة والسواد الأعظم من الشعب على السواء بالمحافظة على مراكزهم ، ولكن الدعاية بالراديو هى وسيلة من وسائل عديدة ترمى إلى تحريك الساسة والسياسيين بشكل مستمر نحو أسلوب حكم ديمقراطى .

إحصائية بعدد أجهزة الإذاعة والتليفزيون فى العالم عام ١٩٨٠ «جميع الأرقام تقريبية» وبالألف

المنطقة	السكان		الإذاعة					التليفزيون		
	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٥٥	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٦٥	١٩٧٥	١٩٨٠
١ أوربا										
غرب أوربا	٢٠٦,٠٠٠,٠٠٠	٤١٤,٠٠٠,٠٠٠	٦٥,٣٠٨,٠٠٠	١١٦,٥٠٠,٠٠٠	١٥٣,٤٠٠,٠٠٠	١٨٦,٦٠٠,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠	٤٩,٤٠٠,٠٠٠	١٠٣,٤٠٠,٠٠٠	١٣٠,٥٠٠,٠٠٠
روسيا وشرق أوربا	٣٥٩,٠٠٠,٠٠٠	٣٧٧,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٢٦٠,٠٠٠	٥٩,٧٠٠,٠٠٠	٧٣,٥٠٠,٠٠٠	٩٢,٦٠٠,٠٠٠	١١٦,٥٠٠,٠٠٠	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٨٧,٠٠٠,٠٠٠	١٠٢,١٠٠,٠٠٠
٢ الشرق الاوسط	١٧١,٠٠٠									
بما فى ذلك شمال أفريقيا	١٧١,٠٠٠,٠٠٠	١٨٨,٠٠٠,٠٠٠	٢,٤٠٠,٠٠٠	١٢,٣٠٠,٠٠٠	١٨,٨٠٠,٠٠٠	٢٩,٣٠٠,٠٠٠	٣٨,٠٠٠,٠٠٠	١,٢٥٠,٠٠٠	٦,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٧٠٠,٠٠٠
٣ أفريقيا										
جنوب أفريقيا	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	٨٧٥,٠٠٠	٢,٦٠٠,٠٠٠	٤,٥٠٠,٠٠٠	٤,٨٠٠,٠٠٠	٦,٠٠٠,٠٠٠		٥٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
بقية أفريقيا	٢٦٧,٠٠٠,٠٠٠	٣٠١,٠٠٠,٠٠٠	٣٦٠,٠٠٠	٤,٨٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠,٠٠٠	١٨,٥٠٠,٠٠٠	٢٣,٥٠٠,٠٠٠	٩٨,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠,٠٠٠
٤ آسيا										
الصين	٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٦,٠٠٠,٠٠٠	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠٠,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٧٥٠,٠٠٠	٣,٠٠٠,٠٠٠
الهند	٥٩٠,٠٠٠,٠٠٠	٦٥٠,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٤,٨٠٠,٠٠٠	١٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٥,٠٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٠١,٠٠٠	٠,٨٠١,٠٠٠
اليابان	١١٠,٠٠٠,٠٠٠	١١٥,٠٠٠,٠٠٠	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	٨٦,٠٠٠,٠٠٠	٨٧,٠٠٠,٠٠٠	٨٥,٠٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠,٠٠٠	٤٢,٠٠٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠,٠٠٠
دول أخرى	٥٥٨,٠٠٠,٠٠٠	٦١٥,٠٠٠,٠٠٠	١,٨٠٠,٠٠٠	١٣,٣٠٠,٠٠٠	٢٧,٦٠٠,٠٠٠	٤٩,٧٠٠,٠٠٠	٦٣,٥٠٠,٠٠٠	٧٠٠,٠٠٠	٨,٩٥٠,٠٠٠	١٤,٧٠٠,٠٠٠
٥ أستراليا والمحيط الهادى	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٢,٧٦٠,٠٠٠	٧,٨٠٠,٠٠٠	١٠,٤٠٠,٠٠٠	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٧٠٠,٠٠٠	٣,٢٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠,٠٠٠	٦,٢٠٠,٠٠٠
٦ العالم الجديد الأمريكان										
الولايات المتحدة	٢١٥,٠٠٠,٠٠٠	٢١٨,٠٠٠,٠٠٠	١١١,٠٠٠,٠٠٠	٢٣٠,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٨٠,٠٠٠,٠٠٠	٤٥٠,٠٠٠,٠٠٠	٦٨,٠٠٠,٠٠٠	١١٠,٠٠٠,٠٠٠	١٣٥,٠٠٠,٠٠٠
كندا	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	٢٦,٠٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠,٠٠٠	٩,٥٠٠,٠٠٠	١١,٠٠٠,٠٠٠
أمريكا الجنوبية	٢٩٦,٠٠٠,٠٠٠	٣٣٠,٠٠٠,٠٠٠	١٢,٦٠٠,٠٠٠	٢٩,٤٠٠,٠٠٠	٤٧,٠٠٠,٠٠٠	٦٢,٨٠٠,٠٠٠	٩٠,٨٠٠,٠٠٠	٧,٤٠٠,٠٠٠	٢٢,٦٠٠,٠٠٠	٣٣,٧٠٠,٠٠٠
جزيرة الهند الغربية	١٠,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠,٠٠٠	١٨٩,٠٠٠	٨٦٠,٠٠٠	٢,٧٠٠,٠٠٠	٤,٠٠٠,٠٠٠	٤,٧٠٠,٠٠٠	١٠١,٠٠٠	١,٢٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠,٠٠٠
مجموع الكل	٣,٨٥١,٠٠٠,٠٠٠	٤,١٩٣,٠٠٠	٢٣٧,٠٠٠,٠٠٠	٥٢٩,٠٠٠,٠٠٠	٧٨٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٣٥,٠٠٠,٠٠٠	١,٢٦٠,٤٠٠,٠٠٠	١٧٧,٠٠٠,٠٠٠	٣٩٨,٠٠٠,٠٠٠	٥١٢,٨٠٠

هذه الأرقام مأخوذة من كتاب الإذاعة البريطانية السنوى عام ١٩٨١

ملحق (ب)

جدول بساعات الإرسال الأسبوعية لأهم الإذاعات الدولية

الدولة	١٩٥٠	١٩٥٥	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠
الاتحاد السوفيتي	٥٣٣	٦٥٦	١٠١٥	١٤١٧	١٩٠٨	٢٠٠١	٢٠٤٠
الولايات المتحدة الأمريكية	٤٩٧	١٢٧٤	١٤٩٥	١٨٣٢	١٩٠٧	٢٠٢٩	١٨٧٢
صوت أمريكا	٤٩٧	٨٤٣	٦٤٠	٨٣١	٨٦٣	٧٨٩	٨٥١
راديو الحرية	...	–	٤١١	٤٧٨	٤٩٧	٦٨٦	٤٦٥
أوربا الحرة	–	٤٣١	٤٤٤	٥٢٣	٥٤٧	٥٥٤	٥٥٦
دول حلف وارسو	٣٨٦	٧٨٣	١٠٠٩	١٢١٥	١٢٦٤	١٤٤٩	١٥٢٩
ألمانيا الشرقية		٩	١٨٥	٣٠٨	٢٧٤	٣٤٢	٣٨٠
بولندا	١٣١	٣٥٩	٢٣٢	٢٨٠	٣٣٤	٣٤٠	٣٣٥
تشيكوسلوفاكيا	١١٩	١٤٧	١٩٦	١٨٩	٢٠٢	٢٥٣	٢٥٤
بلغاريا	٣٠	٦٠	١١٧	١٥٤	١٦٤	١٩٧	٢٣٥
رومانيا	٣٠	١٠٩	١٥٩	١٦٣	١٨٥	١٩٠	١٩٨
المجر	٧٦	٩٩	١٢٠	١٢١	١٠٥	١٢٧	١٢٧
الصين	٦٦	١٥٩	٦٨٧	١٠٢٧	١٢٦٧	١٤٢٣	١٣٨٠
ألمانيا الغربية	–	١٠٥	٣١٥	٦٧١	٧٧٩	٧٦٧	٧٩٨
المملكة المتحدة	٦٤٣	٥٥٨	٥٨٩	٦٦٧	٧٢٣	٧١٩	٧١٢
ألبانيا	٢٦	٤٧	٦٣	١٥٤	٤٨٧	٤٩٠	٥٥٧
مصر		١٠٠	٣٠١	٥٠٥	٥٤٠	٦٣٥	٥٤٢
الهند	١١٦	١١٧	١٥٧	١٧٥	٢٧١	٣٢٦	٣٩٥
كوبا	–			٣٢٥	٣٢٠	٣١١	٣٨٢
أستراليا	١٨١	٢٢٦	٢٥٧	٢٩٩	٣٥٠	٣٧٩	٣٣٣
هولندا	١٢٧	١٢٠	١٧٨	٢٣٥	٣٣٥	٤٠٠	٢٨٧
اليابان		٩١	٢٠٣	٢٤٩	٢٥٩	٢٥٩	٢٥٩
أسبانيا	٦٨	٩٨	٢٠٢	٢٧٦	٢٥١	٣١٢	٢٤٠

(تابع) جدول بساعات الإرسال الأسبوعية لأهم الإذاعات الدولية

الدولة	١٩٥٠	١٩٥٥	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠
البرتغال	٤٦	١٠٢	١٣٣	٢٧٣	٢٩٥	١٩٠	٢١٠
إسرائيل		٢٨	٩١	٩٢	١٥٨	١٩٨	١٨٤
إيطاليا	١٧٠	١٨٥	٢٠٥	١٦٠	١٦٥	١٧٠	١٧٠
نيجيريا		–	–		٦٣	٩٢	١٧٥
جنوب أفريقيا	–	١٢٧	٦٣	٨٤	١٥٠	١٤١	١٦٦
كندا	٨٥	٨٣	٨٠	٨١	٩٨	١٥٩	١٣٥
غانا	–	–	–	٢١٢	١٨٦	١٣١	
فرنسا	١٩٨	١٩١	٣٢٦	١٨٣	٢٠٠	١٠٨	١٢٠
يوغسلافيا	٨٠	٤٦	٧٠	٧٨	٧٦	٨٢	٧٩

١ – أعلاه أرقام ساعات الإرسال الأسبوعية فى شهر ديسمبر من عام ١٩٥٠ حتى ١٩٧٥ أو أقرب شهر وردت أرقام عنه .

٢ – هذه القائمة تضم أقل من نصف إذاعات العالم الخارجية ، وقد استبعدنا فرموزا وفيتنام وكوريا الشمالية والجنوبية والإذاعات التجارية المختلفة ، والإذاعات الدينية ، والإذاعات السرية ، كما استبعدنا البرامج المحلية المذاعة على الموجة القصيرة ، فهى أصلا موجهة للداخل مثل فرنسا ومصر .

٣ – هذه القائمة مأخوذة من كتاب الإذاعة البريطانية عام ١٩٨١ .

ملحق (حـ)
ميثاق العمل الأخلاقى
(إذاعة القاهرة)

المحظورات الواردة فى ميثاق الشرف للعاملين باتحاد الإذاعة والتليفزيون :

١ – لا يجوز إذاعة ما يتضمن المساس بالأديان والعقائد .

٢ – لا يجوز إذاعة ما يثير الجدل الدينى بين الطوائف .

٣ – لا يجوز إذاعة ما يمس السياسة العليا للدولة أو الأهداف التى تقوم عليها هذه السياسة .

٤ – لا يجوز إذاعة هجوم على الأنظمة العامة للدولة .

٥ – لا يجوز إذاعة ما يتضمن التحريض على انتهاك القوانين .

٦ – لا يجوز إذاعة ما يمس صور البطولة القومية .

٧ – لا يجوز إذاعة ما يمس القومية العربية أو قيمها الكفاحية أو تراثها القومى .

٨ – لا يجوز إذاعة هجوم على القوميات الأخرى .

٩ – لا يجوز إذاعة ما من شأنه المساس بهيبة هيئات القضاء والدفاع والأمن ورجال الدين .

١٠ – لا يجوز إذاعة هجوم على رجال السلطة العامة بسبب أدائهم لوظائفهم .

١١ – لا يجوز إذاعة ما من شأنه تحقير أى مهنة مشروعة .

١٢ لا يجوز إذاعة ما من شأنه تحقير كيان الأسرة أو التقليل من قدسيتها أو يهز القيم التى يقوم عليها بناؤها .

١٣ – لا يجوز تحبيذ الطلاق كوسيلة لحل مشاكل الأسرة .

١٤ – لا يجوز إذاعة ألفاظ أو تعبيرات أو صور سوقية أو مبتذلة .

١٥ – لا يجوز إذاعة ما من شأنه أن يمس الآداب أو الوقار أو يخدش الحياء سواء بالقول أو الأداء أو الصورة .

١٦ – لا يجوز إذاعة ما يؤدى إلى تحبيذ الانحلال الخلقى ، سواء بالقول أو الأداء أو الصورة .

١٧ – لا يجوز إذاعة ما من شأنه إشاعة اليأس وروح الهزيمة فى الأفراد ، أو المجتمع .

١٨ – لا يجوز المساس بالقيم النابعة من تقاليدنا الطيبة .

١٩ – لا يجوز إذاعة ما من شأنه إشاعة البلبلة أو المبادئ المناهضة لأسس المجتمع العربى وتقاليده .

٢٠ – لا يجوز إذاعة ما من شأنه تحبيذ التفرقة بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة أو الطبقة .

٢١ – لا يجوز إذاعة ما يؤدى إلى تحبيذ الجريمة أو عرض وسائلها الشاذة بطريقة يمكن أن تؤدى إلى التقليد .

٢٢ –لا يجوز إذاعة ما يجيز تعاطى المخدرات أو الاتجار فيها أو المحرمات الأخرى كالخمر والميسر .

٢٣ – لا يجوز إذاعة ما من شأنه تحبيذ الأخذ بالثأر .

٢٤ – لا يجوز إبراز صور القسوة على الإنسان أو الحيوان .

٢٥ – لا يجوز إذاعة صور الرعب المفزعة .

٢٦ – لا يجوز فيما يذاع إيذاء شعور ذوى العاهات البدنية أوالعقلية .

٢٧ – لا يجوز إذاعة المعلومات الخاصة .

٢٨ – لا يجوز إذاعة آراء أو تعليقات أو توجيهات ذات صبغة علمية أو فنية أو مهنية أو دينية ما لم تكن من مختص أو بعد مراجعته .

٢٩ – لا يجوز إبراز ما يخالف الحقائق العلمية من خرافات .

٣٠ – لا يجوز للعامل فى الاتحاد أن يتخذ أجهزته أو يسمح باتخاذ هذه الأجهزة وسيلة للدعاية للنفس ، كما لا يجوز له فى غير الإعلانات التجارية أن يذيع أو يسمح بإذاعة ما يتضمن دعاية لأفراد من الفنانين أو من الجمهور أو لشركات أو سلع بعينها ، مما يدخل فى باب هذه الإعلانات .

٣١ – لا يجوز للعامل فى الاتحاد أن يذيع أو يسمح بإذاعة ما من شأنه الإساءة إلى برامج غيره .

٣٢ – لا يجوز للعامل فى الاتحاد أن يذيع أو يسمح بإذاعة ما من شأنه إظهار رفع الكلفة بينه وبين المتحدثين أو الفنانين ، كما لا يجوز إضفاء ألقاب على المتحدثين أو الفنانين ليست لهم .

يجب مراعاة ما يلى فى الإذاعات الدولية :

نغمة مقدم البرنامج لا تقل أهمية عن محتوى البرنامج ويجب مراعاة المحظورات التالية :

١ تجنب الأقوال أو النغمة الدالة على القذف والشتم والأنتقام والرغبة فى العدوان والسرعة والتكبر والتعالى والعاطفية ، والشماتة والمكابرة والأدعاء والتواضع .

٢ – عند تحرير البرنامج يجب أن يكون الموضوع فى ظاهره شرعيًا وقانونيًا ومن ثم تجنب العبارات غير الواقعية وتلك التى تلهب الشعور ، وقد يكون فى الأخبار المباشرة أو استعراضات الصحف ما يدعو إلى إلهاب الشعور إذا ما قدمت بطريقة سيئة فى أوقات يسودها التوتر .

٣ تجنب كل ما هو صارخ وكل دعاية جدلية .

٤ – تجنب التعميمات الكلية والتقييمات الكلية .

٥ – تجنب – فى التعليقات أو أية مادة غيرها – ما قد يفسر بأنه دعوة إلى الثورة أو إلى العنف .

٦ – تجنب النصائح التكتيكية أى التوصيات بعمل شىء محدد فى ظروف محددة إلا إذا كانت الظروف شاذة ، وفى هذه الحالة يجب أن يكون ديدنك تهدئة الشعور فى الأحوال المتوترة . والمستمعون – بفرض أنهم يعلمون الحقائق – يستطيعون أن يحكموا بأنفسهم على وجاهة وكفاءة أعمالهم والنتائج المترتبة عليها ، وهم أصدق حكماً عليها من غيرهم ، وكل نصيحة توجه من محطة أجنبية تقابل بالامتعاض أو التأفف ، وإذا ما أخذوا بها قد تؤدى إلى إضرار بعض الناس .

٧ – الاستمرار فى مناقشة المسائل الرئيسية أمر ضرورى ، ولكن تجنب الرتابة أو التكرار غير المطلوب ، فالتكرار الممل هو السبب الأول لفشل الدعاية .

٨ – لا يذاع أى برنامج يقوم على الإشاعات ، أو يستخدم المعلومات غير المؤيدة بحقائق وفى الظروف غير العادية يمكن لفت نظر المستمع إلى إشاعة سارية مع الإشارة إلى طبيعتها كإشاعة .

٩ – لا تقفز إلى النتائج سواء بإعطاء حكومات معينة أهمية لا تستحقها أو بتأكيد بيانات

أو بلاغات أثبتت التجارب أن الحكومات المعنية لن تقوم بتنفيذها كاملة أو قد تتنصل منها فيما بعد .

١٠ - لا تشجع على هرب المواطنين من الدول المستهدفة للإذاعة سواء عن طريق البرامج أو عن طريق الاتصال الشخصى مع الزائرين ، وإذا ما أعد برنامج عن حياة أحد اللاجئين أو أجرى حديث معه فيجب عدم تشجيع « الغير » على الإحتذاء به ويحظر إذاعة معلومات عن طريق الهروب .

١١ - لا تشجع المستمع على الاعتقاد بأن الدولة المصدرة للإذاعة أو غيرها سوف تأتى إلى نجدة شعب الدولة المستهدفة فى حالة ثورته أو قيامه باضطرابات داخلية ولا يجوز إذاعة توقعات تدور بشأن قيام ثورة أو اضطرابات فى المناطق المستهدفة أو عن اثار ناتجة عنها .

١٢ - يحظر إذاعة أية مادة تُعتبر ثرثرة تافهة أو قذفاً أو تعدياً على الحياة الشخصية أو العائلية ، وليس معنى ذلك الإنصراف عن مناقشة الأعمال العامة التى يأتيها الرجال الرسميون .

١٣ - الإذاعات التى لها تأثير فى المستمع هى تلك التى تقوم على الصدق والحقائق والتحليل الدقيق لآراء المستمعين ، وعلى الإذاعة أن تقوم بإعداد « الوثائق » فى كل حدث سياسى واقتصادى وثقافى إعداداً يأخذ صورة الإقناع والمهارة بشكل يؤدى إلى النتيجة المعقولة التى سوف يصل إليها المستمع هذا الأسلوب أكثر تأثيراً من سرد الحقائق فقط بدون ما يعززها من تأكيدات وبيانات وبالتالى قد يتشكك فيها المستمع ويعتبرها غير صادقة أو غير دقيقة أو يؤولها بأنها رأى ذاتى للمحطة نفسها .

١٤ - من الأفضل أن تضع علامة استفهام فى نهاية الموضوع : لا شك فى أن الوصول إلى نتائج متزنة منطقية أمر لا ينازع فيه شخصان ، فهو مفيد ، على أن الواجب الأول للإذاعة هو إثارة مستمعيها حتى يصلوا بتفكيرهم إلى النتائج التى تريدها وهى إذا ما أوردت كل الحقائق ونظمتها تنظيماً صحيحاً وقدمتها بأسلوبها الصحيح ثم تركت المستمع يكوِّن رأيه بنفسه فإن النتائج المرجوة سوف تترسب فى عقل المستمع أطول مدة ممكنة ، وليس من المحتمل أن ينساها سريعاً .

١٥ - تجنب المقارنات المباشرة التى قد يكرهها المستمع أو تكون لها آثار عكسية .

١٦ - كلما كانت الحقائق ناصعة مذهلة قَلَّ أسلوب التقديم زخرفة وتفسيراً وتأويلا ،

ولكن على كتّاب الدراما والممثلين أن يلجأوا إلى العاطفة فى كتابة أو تمثيل رواياتهم حتى ينجحوا فى مهمتهم .

المواد السياسية أكثر فاعلية إذا ما فهمت بالعقل لا بالعاطفة وإذا ما لجأت إذاعة إلى العاطفة فى وصف الاضطهاد السياسى والكساد الاقتصادى الذى يعانى منه الفرد فى المناطق المستهدفة فيجب أن تقدم بالمثل ما يثبت أنها تؤمن بما تنادى به حتى يكتشف المستمع بنفسه ما يقوم عليه نظامه من شرور وفساد ، وبالتالى يجب الامتناع عن تقديم المواد فى نغمة الاستهزاء أو الحقد ، خاصة إذا ما كانت تمس الزعماء أو الشخصيات الكبيرة التى لها احترامها الأكيد عند المستمعين .

١٧ – تجنب الدخول فى مجادلات مع الإذاعات الأخرى فهى دائمًا تأتى بنتيجة عكسية ، نظراً لأن الكثير من الموضوعات عرضة للنقد وعدم الاتفاق ، مثال ذلك إذا ما حاولت تفسير موقف عدو لك ، أو حتى دولة ثالثة ، وإذا ما هاجمتك الإذاعات المعادية فحاول أن يكون ردك فى أضيق الحدود معتمداً على أن طبيعة إنتاجك الإذاعى العادى وفاعلية موادك تعمل من جانبها فى تفنيد التهجمات المعادية سواء كانت فى الصحف أو الإذاعة ، مما يجعل المستمع لا يصدق مثل هذه الاتهامات .

١٨ – تجنب دائماً السباب أو المصطلحات المذهبية التى لا يتقبلها أو لا يستخدمها المستمع ، كذلك تجنب المصطلحات القديمة .